آلــة الزمـــن

هربرت جورج ويلز

- Author : Herbert George Wells
- Title: The Time Machine
- Translated by: Shohrat Al Alem
- Afaq's first edition: 2018
- Cover Design by: Amr El Kafrawy
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier

- المؤلف: هربرت جورج ويلز
- العنوان : آلة الزمن
- ترجمة : شهرت العالم
- طبعة آفاق الأولى 2018
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير

رقم الإيداع:
٢٠١٧/١٦٠٦٢
الترقيم الدولي : ISBN
978-977-765-119-6

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

هربرت جورج ويلز

آلـــة الزمـــن

اختـــراع

ترجمة

شهرت العالم

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

ويلز، هربرت جورج.

آلة الزمن - ترجمة: شهرت العالم

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2018

160 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 16062 / 2017

الترقيم الدولي 6 - 119 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء

2 - ويلز، هربرت جورج

«يا أحمق! الوجود باقٍ دومًا
حتى لو لم يبق من يتذكره».

- براوننج[1].

الناشر:

NEW YORK

HENRY HOLT AND COMPANY, 1895

(١) روبرت براونينج (١٨١٢-١٨٨٩): شاعر وكاتب مسرحي إنجليزي. المترجمة.

توضيح من المؤلف

لقد نُشرت قصة «المسافر عبر الزمن» وجزء من المحادثة الاستهلالية كمسلسل في صحيفة «نيو رفيو» ***New Review***، كما نُشرت سابقًا عدة مقاطع وصفية من القصة على شكل حوار في صحيفة «ناشيونال أوبزيرفر» ***National Observer***. أما شرح «مبادئ» السفر عبر الزمن الواردة في هذا الكتاب، فهي مأخوذة من الصحيفة الأخيرة. ولذا أود الإقرار بالشكر والتقدير المعتادين.

هـ. ج. و.

المحتويات

الفصل الأول: المخترع

الفصل الثاني: عودة المسافر عبر الزمن

الفصل الثالث: وتبدأ القصة

الفصل الرابع: العصر الذهبي

الفصل الخامس: غروب الشمس

الفصل السادس: ضياع آلة الزمن

الفصل السابع: الحيوان الغريب

الفصل الثامن: المورلوك

الفصل التاسع: عندما هبط الليل

الفصل العاشر: قصر الخزف الأخضر

الفصل الحادي عشر: في ظلام الغابة

الفصل الثاني عشر: فخ أبي الهول الأبيض

الفصل الثالث عشر: مشهد آخر

الفصل الرابع عشر: بعد قصة المسافر عبر الزمن

الفصل الأول

المُخترع

اشتهر الرجل الذي صنع آلة الزمن في الأوساط العلمية منذ عدة سنوات، كما اشتهرت أيضًا واقعة اختفائه، وسوف أطلق عليه «المسافر عبر الزمن». هو عالم رياضيات يتمتع بفطنة متميزة، وأحد أبرز باحثينا في الفيزياء الجزيئية. لكنه لم يُقيد نفسه بمجال العلوم المجردة، وحصل على العديد من براءات الاختراع المبتكرة، من بينها واحدة أو اثنتان مُربحتان، كما يشهد على ذلك منزله الجميل في ريتشموند. على أن أصدقاءه الحميمين اعتبروا أبحاثه العلمية لا شيء مقارنة بموهبته في الحديث؛ إذ اتسمت دومًا أحاديثه، في الساعات التي تلي وجبة العشاء، بالحيوية والتنوع، مع إثارته أحيانًا لمفاهيم رائعة، وغالبًا متناقضة، بطريقة مكثفة ومتواصلة بحيث تُشكل خطابًا واحدًا مستمرًا.

كان يبدو في تلك الأوقات مختلفًا عن التصور الشائع للباحث العلمي. فقد تتورد وجنتاه، وتتألق عيناه؛ وكلما زادت غرابة الأفكار

التي تتدفق وتزدحم في عقله، ازدادت سعادته وأصبح حديثه أكثر تشويقًا وحيوية.

وحتى آخر يوم، شهد منزله نوعًا من التجمع غير الرسمي، وشرُفت بحضوره، حيث التقيت بأكثر رجالات الأدب والعلم تميزًا. كان عشاء عاديًّا في السابعة، انتقلنا بعده إلى غرفة تضم عددًا من المقاعد المريحة والموائد الصغيرة لاحتساء الخمر وتدخين الغليون. دارت الأحاديث في البداية كمجرد ثرثرات متقطعة، تتخللها لحظات صمت كأنما لهضم الطعام. لكنَّ موضوعًا بعينه برز، كنوع من الانتقاء الطبيعي، حوالي التاسعة أو التاسعة والنصف، وأصبح محط اهتمامنا جميعًا. وأتذكر أن ذلك الخميس الأخير، كان اليوم الذي أسمع فيه للمرة الأول عن آلة الزمن.

جلست محشورًا في ركن مع رجل مهذب يتخفى في شكل فيلبي[٢] ، جاء مهرولًا من ميلتون. أذهلني أن أحدًا لم يُلق بالًا إلى أبيات فيلبي الشِّعرية القصيرة؛ ولم أستطع التفكير في أي شيء إلا وضع فيلبي النسبي والرجل الذي انتقده، لكنني خجلت من مناقشة ذلك، ولذا أشعرني وصولنا إلى لحظة الانصهار تلك، عندما اندمجت فجأة محادثاتنا المتعددة متحولة إلى مناقشة عامة، بارتياح كبير.

«ما هذا الهراء؟» – قال الطبيب المشهور، متحدثًا عبر فيلبي إلى الطبيب النفسي.

(٢) يُطلق اسم فيلبي على الأشخاص الذين ينحدون من مقاطعة نورفولك الإنجليزية. المترجمة.

أجابه الطبيب النفسي: «إنه يعتقد أن الزمن هو مجرد نوع من المكان».

فقال المسافر عبر الزمن: «هذا ليس اعتقادًا، بل معرفة».

«هذا ادعاء متأنق»، علّق فيلبي وهو مستمر في العزف على أخطائه؛ لكنني تظاهرت باهتمامي الكبير بمسألة المكان والزمان.

بدأ الطبيب النفسي يقول: «كانط ....».

قاطعه المسافر عبر الزمن قائلًا: «كانط المتحير!»، ثم واصل: «أقول لكم إنني على حق. لدي دليل تجريبي على ذلك. أنا لست ميتافيزيقيًّا». توجه بحديثه إلى الطبيب، وانجذبت المجموعة كلها إلى دائرته. «إنها أكثر نقطة انطلاق واعدة شهدتها البحوث التجريبية حتى الآن، وستؤدي ببساطة إلى تثوير الحياة. والسماء تعرف كيف ستبدو الحياة عندما أستكمل هذه المسألة».

قال الطبيب الموقر: «ما دام الأمر لا يتعلق بماء الخلود فلا مانع، ما القصة؟».

قال الطبيب النفسي: «ليست سوى مفارقة».

لم يرد المسافر عبر الزمن، لكنه ابتسم وبدأ يطرق غليونه فوق سياج المدفأة. كان قوله نبوءة ثابتة في أطروحته.

«يجب أن تعترف بأن الزمن هو بُعد مكاني»، هكذا وجه الطبيب النفسي، متشجعًا بحصانته، حديثه إلى الطبيب: «وعندئذ، توجد حتمًا

جميع أنواع النتائج الباهرة، ومن بينها يصبح السفر عبر الزمن ممكنًا».

ضحك المسافر عبر الزمن قائلًا: «لكنك نسيت أنني سأثبت ذلك تجريبيًّا».

فقال الطبيب النفسي: «حدثنا عن تجربتك».

وقال فيلبي: «أعتقد أننا نود معرفة الحُجة أولًا».

«إنها كالتالي»، بدأ المسافر عبر الزمن شرحه، «عليكم متابعي بعناية؛ فسوف أفند فكرة أو فكرتين مقبولتين بشكل عام تقريبًا. فالهندسة التي علموها لكم في المدرسة، على سبيل المثال، تتأسس على تصور خاطئ».

قاطعه فيلبي: «أتتوقع منا أن نبدأ بشيء ضخم كهذا؟».

«أنا لا أقصد أن أطلب منكم قبول أي شيء دون أساس معقول. وقريبًا سوف تعترفون بالقدر الذي أريده منكم. تعرفون بالطبع أن الخط الذي يبلغ سُمكه صفرًا في الرياضيات غير موجود فعليًّا. هل درسوا لكم ذلك؟ وينطبق الشيء نفسه في الرياضيات على المستوى. فهذه الأشياء ليست سوى أشياء مجردة».

قال الطبيب النفسي: «هذا صحيح، كما لا يوجد فعليًّا مكعب له طول وعرض وسُمك فقط».

تدخل فيلبي: «هنا أنا أعترض، بالطبع يمكن أن يوجد مُجسم. فجميع الأشياء الحقيقية...».

«هذا ما يعتقده معظم الناس. ولكن، انتظر لحظة. هل يمكن أن يوجد مكعب لحظيًّا؟».

واصل فيلبي: «لا أفهمك؟».

«هل يمكن لمكعب لا يستمر وجوده أي فترة زمنية على الإطلاق، أن يوجد بالفعل؟».

استغرق فيلبي في التفكير.

«بوضوح»، واصل المخترع الفيلسوف، «أي جسم حقيقي يجب أن يمتد في أربعة اتجاهات: طول، وعرض، وسُمك، و... فترة زمنية. لكننا نميل إلى إغفال الحقيقة نتيجة عجز الأجسام الطبيعي، الذي سأشرحه لكم الآن. هناك بالفعل أربعة أبعاد، نُطلق على ثلاثة منها مستويات المكان، والرابع هو الزمن. ومع ذلك، هناك ميل للتمييز على نحو غير واقعي بين الأبعاد الثلاثة السابقة والبُعد الأخير، ذلك أن وعينا يتحرك بشكل متقطع في اتجاه واحد عبر البُعد الأخير من بداية حياتنا إلى نهايتها».

«هذا»، قال شاب صغير وهو يبذل جهدًا متقطعًا لإعادة إشعال سيجاره من المصباح، «هذا ... واضح جدًّا في الواقع».

واصل المخترع الفيلسوف مبتهجًا: «من اللافت للنظر تجاهل ذلك إلى حد كبير. وهذا هو المقصود بالبعد الرابع، على الرغم من أن بعض من يتحدثون عنه لا يعرفون أنهم يقصدونه. إنها مجرد طريقة

أخرى للنظر إلى الزمن. لا يوجد فرق بين الزمن وأي من أبعاد المكان الثلاثة، ما عدا أن وعينا يتحرك عبره. لكن بعض الحمقى يتمسكون بالجانب الخاطئ من تلك الفكرة. ألم تسمعوا جميعًا ما قالوه عن هذا البعد الرابع؟».

أجاب عمدة المقاطعة: «كلا، أنا لم أسمع».

«الفكرة ببساطة أن المكان، كما يراه علماء الرياضيات، له ثلاثة أبعاد يُطلق عليها الطول والعرض والسُّمك، ويتحدد المكان دائمًا بالرجوع إلى هذه المستويات، التي يصنع كل منها زاوية قائمة مع المستويين الآخرين. لكن بعض الفلاسفة كانوا يتساءلون لماذا ثلاثة أبعاد تحديدًا، ألا يمكن أن يوجد اتجاه آخر يصنع زوايا قائمة مع الأبعاد الثلاثة الأخرى؟... بل حاولوا أيضًا بناء هندسة رباعية الأبعاد. لقد شرح البروفيسور سايمون نيوكومب هذه الفكرة لجمعية الرياضيات في نيويورك منذ شهر أو نحو ذلك. أنتم تعرفون كيف يمكننا على سطح مستو، أي ذو بعدين فقط، تمثيل شكل جسم ثلاثي الأبعاد، وهم يعتقدون بالمثل أن بإمكانهم تمثيل شكل من أربعة أبعاد باستخدام نماذج ثلاثية الأبعاد .... إذا استطاعوا التمكُّن من منظور الشيء. فهمتم؟».

«أعتقد ذلك»، تمتم عمدة المقاطعة؛ وغرق عاقدًا حاجبيه في حالة من التأمل الداخلي، وشفتاه تتحركان كمن يردد كلمات غامضة. وبعد قليل قال مُشرقًا وهو في حالة انتقالية تمامًا: «نعم، أعتقد أنني

أفهم الآن».

«حسنًا، لا مانع أن أخبركم أنني كرستُ عملي لبعض الوقت على هذه الهندسة ذات الأربعة أبعاد، وكانت بعض نتائجي مثيرة للفضول: فعلى سبيل المثال، هذه صورة لرجل عندما كان في الثامنة من عمره، ثم صورته في الخامسة عشر، ثم صورة أخرى وعمره سبع عشرة سنة، ثم ثلاثة وعشرين ... وهلم جرا. يبدو واضحًا أنها جميعًا مقاطع، أي تمثيلات ثلاثية الأبعاد لوجوده رباعي الأبعاد، وهو شيء ثابت وغير قابل للتغيير».

وبعد توقف ضروري لاستيعاب الأمر بشكل صحيح، قال الفيلسوف: «يعرف أهل العلم جيدًا أن الزمن ليس سوى نوع من المكان. فها هو رسم تخطيطي علمي شائع: سجل الطقس. يوضح هذا الخط الذي أتتبعه بإصبعي مسار الزئبق في البارومتر. كان بالأمس شديد الارتفاع، ثم انخفض ليلًا، وعاد للارتفاع مرة أخرى هذا الصباح، ثم واصل ارتفاعه رويدًا إلى هنا. من المؤكد أن الزئبق لم يتبع هذا المسار في أي بُعد من أبعاد المكان المُقرة عمومًا؟ لكنه تتبع قطعًا هذا المسار، ولذا علينا أن نستنتج أن هذا المسار كان يتحرك عبر البُعد الزمني».

«ولكن»، قال الطبيب وهو يحدق في قطعة فحم في نار المدفأة، «إذا كان الزمن هو بُعد رابع بالفعل للمكان، لماذا كان ولا يزال يُعتبر دائمًا شيئًا مختلفًا؟ ولماذا لا يمكننا أن نتحرك في الزمن كما نتحرك

في أبعاد المكان الأخرى؟».

ابتسم الفيلسوف قائلًا: «هل أنت متأكد من أننا يمكن أن تتحرك بحرية في المكان؟ يمكننا التحرك نحو اليمين واليسار، إلى الخلف وإلى الأمام، بحرية كافية. ويفعل الإنسان ذلك دائمًا. اعترف أننا نتحرك بحرية في بُعدين. ولكن ماذا عن حركتنا إلى أعلى وأسفل؟ هنا تُقيدنا الجاذبية».

«ليس تمامًا»، قال الطبيب، «هناك منطاد البالون».

«لكن الإنسان لم يتمتع بحرية الحركة الرأسية قبل منطاد البالون، باستثناء القفزات المتقطعة ووعورة سطح الأرض».

«مع ذلك، يمكن التحرك قليلًا إلى أعلى وأسفل»، قال الطبيب.

«إلى أسفل أكثر سهولة، أسهل كثيرًا من الحركة إلى أعلى».

«ولا يمكنك على الإطلاق التحرك عبر الزمن. لا يمكنك الإفلات من اللحظة الراهنة».

«سيدي العزيز، هنا تحديدًا أنت على خطأ. وهنا تحديدًا أخطأ العالم كله. نحن نفلت دائمًا من اللحظة الراهنة. فوجودنا العقلي، وهو غير مادي وبلا أبعاد، يسير دومًا عبر البعد الزمني بسرعة منتظمة من المهد إلى اللحد؛ مثلما يجب أن نتحرك إلى أسفل إذا بدأنا وجودنا على ارتفاع خمسين ميلًا فوق سطح الأرض».

قال الطبيب النفسي مقاطعًا: «لكن الصعوبة الكبرى تكمن في

قدرتك على التحرك في جميع الاتجاهات عبر المكان، لكنك لا تستطيع التحرك عبر الزمن».

«هذا هو أساس اكتشافي العظيم. لكنك أخطأت بقولك أننا لا نستطيع التحرك عبر الزمن. وعلى سبيل المثال، عندما أتذكر حادثًا بوضوح، فإنني أعود إلى لحظة وقوعه؛ ويشرد ذهني، كما تقول. أقفز إلى الماضي للحظة. ليس لدينا بالطبع أي وسيلة للبقاء في الماضي لأي فترة زمنية أطول من فترة بقاء إنسان بدائي أو أي حيوان على ارتفاع ستة أقدام فوق سطح الأرض. لكن الإنسان المتحضر أفضل حالًا من الإنسان البدائي في هذا الصدد؛ إذ يمكنه الارتفاع ضد الجاذبية في بالون. ولماذا لا نأمل أن يتمكن الإنسان، في نهاية المطاف، من إيقاف أو تعجيل تحركه عبر البُعد الزمني؛ أو حتى التحرك العكسي والسفر في الاتجاه الآخر؟».

بدأ فيلبي يقول: «آآه، كل هذا...».

قاطعه المخترع الفيلسوف: «ولمَ لا؟».

فقال فيلبي: «إنه ضد المنطق».

تساءل المخترع الفيلسوف: أي منطق؟».

فأجاب فيلبي: «يمكنك بالحجة أن تُبين أن الأسود أبيض، لكنك لن تقنعني أبدًا».

«ربما لن أقنعك»، قال المخترع الفيلسوف، «لكنكم الآن بدأتم

تفهمون هدف أبحاثي في الهندسة رباعية الأبعاد. فمنذ فترة طويلة كان لدي تصور غامض عن آلة...».

«للسفر عبر الزمن!»، قال الشاب الصغير.

«تسافر في أي اتجاه عبر المكان والزمان، كما يحدد سائقها».

ضحك فيلبي.

وقال الطبيب النفسي: «قد يكون هذا ملائمًا إلى حد كبير. إذ يمكن للمرء أن يسافر إلى الماضي ويشهد معركة هاستينجز»[٣].

«ألا تعتقد أنك سوف تجذب الاهتمام؟»، قال الطبيب، «فلم يكن لدى أسلافنا قدر كبير من التسامح تجاه المفارقات التاريخية».

«قد يتعلم المرء إذن اليونانية من شفاه هوميروس وأفلاطون نفسيهما»، هكذا أعرب الشاب الصغير عما يفكر فيه.

«في هذه الحالة سيجعلونك مستعدًا بالتأكيد لاختبارات الجامعة. فقد تحسنت اليونانية كثيرًا على أيدي العلماء الألمان».

«ثم هناك المستقبل»، قال الشاب الصغير، «فكروا فحسب في الأمر! قد يستثمر المرء جميع أمواله، ويتركها تتراكم نتيجة للفوائد، ثم يسرع نحو المستقبل».

قلت: «لاكتشاف مجتمع قائم على أساس شيوعي صارم».

---

(٣) معركة هاستينجز: ١٤ أكتوبر ١٠٦٦، شهدت هزيمة إنجلترا بقيادة الملك هارولد الثاني على أيدي قوات الجيش النورماني بقيادة وليام الفاتح في موقعة تبعد حوالي ١٠ كم شمال غرب هاستينجز. المترجمة.

فبدأ الطبيب النفسي يقول: «يضم جميع النظريات المتهورة الجامحة...».

«نعم، هذا ما يبدو لي، ولذا لم أتحدث عنها أبدًا إلى أن...».

قاطعته صائحًا: «تتحقق تجريبيًّا!... سوف تتحقق من ذلك!».

«بالتجربة!» صاح فيلبي، الذين بدأ يشعر بالضجر.

واصل الطبيب النفسي: «دعنا نرى تجربتك، على أية حال، مع أن الأمر برمته خدعة، كما تعرف».

ابتسم المسافر عبر الزمن وهو ينظر إلينا. ثم خرج ببطء من الغرفة وهو لا يزال يبتسم ابتسامة خفيفة، ويضع يديه بعمق في جيوب بنطاله، ثم سمعنا صوت نعليه وهو يسير متثاقلًا أسفل ممر طويل إلى مختبره.

نظر إلينا الطبيب النفسي قائلًا: «أتساءل ماذا لديه؟».

قال الطبيب: «خدعة أو أخرى من خدع خفة اليد». حاول فيلبي أن يخبرنا عن ساحر شاهده في مدينة بورسلِم، لكن المسافر عبر الزمن عاد قبل أن ينتهي من التمهيد لقصته وانهارت طرفة فيبلي.

كان الشيء الذي حمله المسافر عبر الزمن في يده عباره عن إطار معدني لامع، بالكاد أكبر من ساعة حائط، ومصنوع بإتقان شديد، بداخله عاج وبعض المواد البلورية الشفافة. يجب أن أشرح بوضوح الآن، فما سأحكيه هو شيء غير قابل للتفسير على الإطلاق، إلا إذا قبلنا التفسير الذي يقدمه المسافر عبر الزمن. تناول إحدى الموائد

الصغيرة ذات الأضلاع الثمانية، المتناثرة في أنحاء الغرفة، ووضعها أمام نار المدفأة، ووقف على السجادة المفروشة أمامها. وضع تقنيته فوق هذه المائدة، ثم سحب كرسيًّا وجلس. كان الشيء الوحيد الآخر على المائدة هو مصباح صغير يسقط ضوء ظلاله الساطع على النموذج كاملًا. أحاطت بنا أيضًا عشرات الشموع، اثنان في الشمعدانات النحاس على رف المدفأة، والعديد في الشمعدانات الجدارية، بحيث أُضيئت الغرفة ببراعة. جلست على مقعد منخفض بذراعين قريب من المدفأة، وحركته نحو الأمام بحيث أصبحت أجلس تقريبًا بين المسافر عبر الزمن والمدفأة. جلس فيلبي وراءه، ناظرًا من فوق كتفه. نظر إليه الطبيب والعمدة من جهة اليمين، والطبيب النفسي من جهة اليسار. كنا جميعًا في حالة تأهب. تصورت أنه من غير المعقول أن تنطلي علينا أي حيلة في ظل هذه الظروف، مهما كانت ماهرة وحاذقة.

نظر المسافر عبر الزمن إلينا، ثم إلى الآلة.

«حسنا؟»، قال الطبيب النفسي.

بدأ المسافر عبر الزمن حديثه وهو يضع مرفقيه على الطاولة، ويضغط بكلتا يديه على الجهاز: «هذا الشيء الصغير ليس سوى نموذج. إنه خطتي لآلة تسافر عبر الزمن. تلاحظون أنه يميل بشكل استثنائي، وهناك وميض غريب يظهر عند هذا القضيب، كما لو كان بشكل ما غير حقيقي». أشار إلى جزء بإصبعه قائلًا: «توجد هنا أيضًا رافعة بيضاء صغيرة، وهنا توجد رافعة أخرى».

نهض الطبيب من مقعده محدقًا في الآلة، وقال: «إنها جميلة الصنع».

رد المسافر عبر الزمن: «استغرق صنعها عامين». وعندما أمعنا النظر جميعًا مثل الطبيب، قال: «والآن أريدكم أن تفهموا بوضوح أن هذه الرافعة، عند الضغط عليها، تجعل الآلة تتحرك منزلقة نحو المستقبل، وهذه الرافعة الأخرى تعكس الحركة. وهذا السِّرج يمثل مقعد المسافر عبر الزمن. سأضغط الرافعة الآن، وستنطلق الآلة. سوف تتلاشى، تسافر إلى المستقبل، وتختفي. انظروا إليها جيدًا، وانظروا إلى المائدة أيضًا، واستمتعوا، ليست هناك أي خدعة؛ فأنا لا أريد تبديد هذا النموذج، ثم يُقال إنني دجال».

ساد صمت ربما لدقيقة. بدا على الطبيب النفسي أنه يريد التحدث معي، لكنه غير رأيه. حرك المسافر عبر الزمن إصبعه نحو الرافعة، ثم قال فجأة: «لا، اقرضني يدك». نظر إلى الطبيب النفسي وأمسك يده وطلب منه أن يضغط بأصبع السبابة. وهكذا، كان الطبيب النفسي نفسه هو من يرسل نموذج آلة الزمن إلى رحلة بلا نهاية. شاهدنا جميعًا الرافعة تدور. كنت على يقين كامل بعدم وجود خدعة. هبت نسمة ريح، وتقافز لهب المصباح. انطفأت إحدى شموع الشمعدان القائم على رف المدفأة، وفجأة تأرجحت الآلة الصغيرة، ولم تعد واضحة، ربما بدت للحظة كشبح، كدوامة من العاج والنحاس الذي يخفت بريقه؛ واختفت... تلاشت! ولم يعُد على المائدة سوى المصباح.

صمت الجميع لدقيقة. ثم قال فيلبي أنه كان أ... أ... أ...

أفاق الطبيب النفسي من ذهوله، ونظر فجأة تحت المائدة. فضحك المسافر عبر الزمن في مرح قائلًا، وهو يتذكر الطبيب النفسي: «حسنا؟»، ثم نهض متوجهًا إلى علبة التبغ على رف المدفأة، وبدأ وهو يدير لنا ظهره في ملء غليونه.

كنا نحدق في بعضنا بعضًا.

«اسمع»، قال الطبيب، «هل أنت جدي؟ هل تعتقد بجدية أن هذه الآلة سافرت عبر الزمن؟».

«بالتأكيد»، أجاب المسافر عبر الزمن وهو يميل لإشعال لفافة التبغ من النار، ثم استدار بعد أن أشعل غليونه مُلقيًا نظرة إلى وجه الطبيب النفسي. (حاول الطبيب النفسي إظهار عدم ارتباكه، فأخذ سيجارًا وحاول إشعاله دون أن يقطعه). «الأكثر من ذلك أنني على وشك الانتهاء من آلة كبيرة لدي هناك»، وأشار إلى المختبر، «وعندما أنتهي، سأقوم بنفسي برحلة».

فقال فيلبي: «تعني أن تقول أن هذه الآلة قد سافرت إلى المستقبل؟».

«إلى المستقبل أو الماضي.. لا أعرف يقينًا».

بعد فترة، طرأت فكرة للطبيب النفسي، فقال: «إذا كانت قد سافرت إلى أي مكان، فيجب أن يكون إلى الماضي».

قال المسافر عبر الزمن: «لماذا؟».

«لأنني أفترض أنها لم تتحرك في المكان، وإذا سافرت إلى المستقبل كان يجب أن تظل هنا طوال الوقت، ما دامت سافرت عبر الزمن».

قلت: «ولكن، إذا سافرت إلى الماضي كان لابد أن تكون موجودة عندما وصلنا إلى هذه الغرفة؛ وأيضًا الخميس الماضي عندما كنا هنا؛ والخميس السابق له؛ وهلمجرا!».

«اعتراضات جدية»، أشار العمدة بطريقة غير متحيزة وتحول ببصره في اتجاه المسافر عبر الزمن.

رد المسافر عبر الزمن: «كلا على الإطلاق»، وتوجه إلى الطبيب النفسي قائلًا: «فكر في الأمر، يمكنك تفسيره. فهذا عرض أدنى من عتبة الإدراك، كما تعلم، عرض مُبسط».

«بالطبع» قال الطبيب النفسي، وطمأننا. «هذه نقطة بسيطة في علم النفس. كان يجب أن أفكر فيها. وهي واضحة بما يكفي، وتساعد على تفسير المفارقة بشكل مُمتع. لا يمكننا أن نرى الآلة أو ندركها بأكثر ما يمكننا أن نتحدث عن عجلة الغزل، أو عن رصاصة تطير في الهواء. فإذا كانت تسافر عبر الزمن أسرع منا بخمسين أو مائة مرة، إذا كانت تقطع دقيقة بينما نقطع نحن ثانية، فإن الانطباع الذي تخلقه لن يكون بالطبع سوى واحد على خمسين أو واحد على المائة مما يمكن أن تفعله إذا لم تكن مسافرة عبر الزمن. هذا واضح

بما فيه الكفاية». حرك يده على المكان الذي كانت توجد فيه الآلة، وقال ضاحكًا: «أ رأيتم؟».

جلسنا ونحن نحدق في المائدة الشاغرة لمدة دقيقة أو نحو ذلك. ثم طلب المسافر عبر الزمن معرفة تصورنا عن الأمر برمته.

قال الطبيب: «يبدو الأمر معقولًا بما يكفي الليلة. ولكن لننتظر إلى الغد، ننتظر الفطرة السليمة التي يأتي بها الصباح».

سأل المسافر عبر الزمن: «هل تريدون رؤية آلة الزمن نفسها؟»؛ ثم أخذ المصباح في يده وقاد الطريق إلى أسفل الممر الطويل جيد التهوية متجهًا إلى مختبره. أتذكر بوضوح الضوء الوامض، وصورة ظِل رأسه الغريب العريض، وتراقص الظلال، وكيف تبعناه جميعًا ونحن مشدوهين وغير مصدقين، وكيف شاهدنا في المختبر نسخة أكبر من تلك الآلة الصغيرة التي رأيناها تتلاشى أمام أعيننا. كانت بعض الأجزاء مصنوعة من النيكل، والبعض الآخر من العاج، وهناك أجزاء هُذِبت أو نُشِرت من البلور الصخري. كان هذا الشيء مكتملًا بوجه عام، لكن القضبان البلورية الملتوية لم تكن منتهية الصُّنع، وموضوعة على دِكة طويلة بجانب بعض لوحات تضم رسومًا، وقد أخذت واحدة لألقي عليها نظرة أفضل. يبدو أنها من الكوارتز.

«اسمع»، قال الطبيب، «هل أنت جاد بالفعل؟ أم هذه خدعة... مثل ذلك الشبح الذي أريتنا إياه في احتفال الكريسماس العام

الماضي؟».

«بهذا الجهاز»، قال المسافر عبر الزمن وهو يحمل المصباح عاليًا، «أعتزم استكشاف الزمن. هل هذا واضح؟ لم أكن أكثر جدية في حياتي».

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني

عودة المسافر عبر الزمن

أعتقد أن أحدًا منا لم يصدق تمامًا حينذاك موضوع آلة الزمن. والحقيقة أن المسافر عبر الزمن كان واحدًا من أولئك الرجال الذين تؤدي شدة مهارتهم إلى صعوبة تصديقهم؛ فلا يشعر المرء أبدًا أنه يعرف عنه كل شيء؛ فدائمًا تتشكك في وجود شيء ما يخفيه، وشيء من البراعة الكامنة، خلف صراحته الواضحة. فإذا كان فيلبي هو من عرض علينا النموذج وشرح الأمر بكلمات المسافر عبر الزمن، لكانت شكوكنا تجاهه ستقل كثيرًا. أقصد أننا كنا سنعرف دوافعه، فحتى الجزار يمكنه فهم فيلبي. لكن طبائع المسافر عبر الزمن كانت تتسم بقدر من الغرابة، فلم نثق في كلامه. يبدو أن الأشياء التي تجلب الشهرة لرجل ماهر هي الحيل التي بين يديه. من الخطأ القيام بالأشياء بسهولة شديدة. لم تشعر أبدًا الشخصيات الجادة التي نظرت في أفكاره بجدية أنهم متأكدون تمامًا من تصرفاته؛ بل كانوا يدركون على نحو ما أن الثقة في سمعتهم للحكم عليه كانت مثل تأثيث دار حضانة بالفخار

الصيني. ولذا، لا أعتقد أن أيًّا منا قال الكثير حول السفر عبر الزمن في الفترة الفاصلة بين ذلك الخميس والخميس التالي، على الرغم من أن تلك الإمكانيات الغريبة ظلت دون شك تدور في أذهان معظمنا: مدى معقوليتها، مدى إمكانية حدوثها عمليًّا، وما طرحته من إمكانيات عجيبة للمفارقات التاريخية، فضلًا عن الارتباك التام. لقد انشغلت أنا نفسي بحيلة النموذج بدرجة كبيرة. وأتذكر أنني ناقشت الطبيب، عندما التقيت به يوم الجمعة في حديقة لينيان، وأخبرني أنه رأى شيئًا مماثلًا في مدينة توبنجن الألمانية، واجتهد كثيرًا ليدرك مسألة انطفاء الشمعة، لكنه لم يستطع أن يُفسر كيفية القيام بالخدعة.

ذهبت إلى ريتشموند مرة أخرى في الخميس التالي. أعتقد أنني كنت أحد أكثر الضيوف انتظامًا في زيارة المسافر عبر الزمن. وصلت متأخرًا، فوجدت أربعة أو خمسة رجال مجتمعين بالفعل في غرفة الجلوس. كان الطبيب يقف أمام نار المدفأة ممسكًا بورقة في إحدى يديه وبساعته في اليد الأخرى. تلفتُ بحثًا عن المسافر عبر الزمن، ثم...

قال الطبيب: «الساعة الآن السابعة والنصف، أعتقد من الأفضل أن نبدأ العشاء؟».

«أين...؟» قلت، مُسميًّا مضيفنا.

«هل وصلت الآن فقط؟ الأمر غريب بعض الشيء. إنه محتجز لا محالة. لقد ترك لي ورقة يطلب مني فيها أن نبدأ العشاء في السابعة إذا

لم يأت. ويقول أنه سيشرح الأمر عند عودته».

فقال رئيس تحرير جريدة يومية مشهورة: «من المؤسف أن نترك العشاء يفسد»؛ وبناء على ذلك دق الطبيب الجرس.

كنت والطبيب النفسي والطبيب من حضر العشاء السابق. أما الرجال الآخرون فهم: بلانك، رئيس التحرير سالف الذكر؛ وصحفي؛ ورجل آخر ملتح لا أعرفه يتسم بالهدوء والخجل، وبقدر ملاحظتي لم يفتح فمه طوال هذه الأمسية. تبادلنا التكهنات على مائدة العشاء حول غياب المسافر عبر الزمن. قلت بما يشبه الدعابة أنه ربما سافر عبر الزمن. أراد رئيس التحرير أن نشرح له معنى ذلك، فتطوع الطبيب النفسي برواية قصة مملة حول «الحيلة والمفارقة البارعة» التي شهدناها ذلك اليوم في الأسبوع الماضي. كان في وسط سرده عندما فُتح الباب من جهة الممر ببطء ودون ضجيج. كنت أجلس في مواجهة الباب، وبالتالي كنت أول من رأى.

قلت: «أهلا وسهلا!، أخيرًا!».

زاد اتساع فتحة الباب، ووقف أمامنا المسافر عبر الزمن. أطلقت صيحة تنم عن المفاجأة.

«يا إلهي! ما القصة؟»، صاح الطبيب الذي رآه بعدي. وتحولت أنظار جميع من يجلسون حول المائدة نحو الباب.

بدا في حالة رثة. كان معطفه متربًا ومتسخًا، تُلوثه بقعٌ خضراء

أسفل الأكمام. وكان شعره منكوشًا، وبدا لي لونه أكثر رمادية، إما بسبب التراب والقذارة، أو لأن لونه قد بهت بالفعل. وكان شحوب وجهه مروعًا، مع وجود قطع بني في ذقنه التأم نصفه؛ وينم تعبيره عن الإنهاك والإرهاق، من معاناة شديدة. تردد للحظة عند المدخل، كما لو أن الضوء بهره، ثم دخل إلى الغرفة. سار وهو يعرج، مثل المتشردين متقرحي القدمين. حدقنا إليه في صمت، متوقعين أن يتكلم.

لم يقل أي كلمة، لكنه جاء متألمًا إلى المائدة، وأشار إلى النبيذ. صب رئيس التحرير كأسًا من الشمبانيا ودفعها نحوه. شرب من الكأس، وبدا حاله أفضل؛ إذ جال ببصره حول المائدة، ولمع وجهه بشبح ابتسامته القديمة.

قال الطبيب: «يا للهول، ماذا كنت تفعل يا رجل؟».

بدا أن المسافر عبر الزمن لم يسمع. قال متلعثمًا: «لا تدعوني أسبب لكم إزعاجًا، أنا بخير». صمت، ثم رفع كأسه ليشرب المزيد، وشربه كله، ثم قال: «هذا جيد». ازداد لمعان عينيه، وبدأ لون خافت يتسرب إلى خديه. نظر إلى وجوهنا بلمحة خاطفة يشوبها استحسان باهت، ثم جال ببصره حول أنحاء الغرفة الدافئة المريحة. بدأ يتحدث مرة أخرى، لكنه كان كمن يحاول أن يتحسس طريقه بين الكلمات: «سوف أذهب لأغتسل وأغير ملابسي، ثم أنزل وأشرح الأمور. احتفظوا لي ببعض من لحم الضأن هذا، فأنا أتحرق شوقًا لقطعة من اللحم».

نظر إلى رئيس التحرير، الذي كانت زياراته نادرة، وأعرب عن أمله في أن يكون بخير. بدأ رئيس التحرير في توجيه سؤال له.

قال المسافر عبر الزمن: «حاليًا، أنا في حالة مضحكة! لكنني سأكون بخير بعد دقيقة».

وضع كأسه، وسار نحو الباب المؤدي إلى السُّلم. لاحظت، مرة أخرى، خطواته العرجاء وصوت وقع أقدامه الضعيف. رأيت، وأنا واقف في مكاني، قدميه وهو يسير خارج الغرفة، فلم يكن يرتدي سوى زوج من الجوارب الممزقة الملطخة بالدماء. أغلق الباب خلفه. كنت أتابع بنصف عقل، إلى أن تذكرت كيف أنه يكره أي ضجة حول نفسه. شردت بذهني، ربما لدقيقة؛ ثم سمعت رئيس التحرير يقول، وهو يفكر (كعادته) بعقلية مانشيتات الصحف: «سلوك لافت للنظر من عالِم مرموق». وهو ما أعاد انتباهي إلى مائدة العشاء المشرقة.

قال الصحفي: «ما اللعبة؟ هل يؤدي دور متسول هاوٍ؟ لا أتابع ما يحدث».

تلاقت عيني بعين الطبيب النفسي، وقرأت تفسيري في وجهه. فكرت في المسافر عبر الزمن وهو يعرج متألمًا خلال صعوده السلم إلى الطابق العلوي. لا أعتقد أن أي شخص آخر لاحظ أنه يعرج.

كان الطبيب هو أول من تعافى تمامًا من هذه المفاجأة، ودق الجرس طلبًا لطبق ساخن، فالمسافر عبر الزمن كان يكره أن يظل الخدم منتظرين خلال العشاء. عندئذ أمسك رئيس التحرير بسكينه

وشوكته وهو يصدر صوتًا كالنخير، وحذا الرجل الصامت حذوه. استؤنف العشاء، وظل الحديث يعتوره التعجب لبعض الوقت، مع فترات من الاندهاش؛ ثم اتقد فضول رئيس التحرير.

سأل: «هل يزيد صديقنا دخله المتواضع بالاحتيال، أم أنه في حالة سُكر؟».

قلت: «أشعر واثقًا أن الأمر يتعلق بآلة الزمن»، وأخذت أروي قصة الطبيب النفسي عن جلستنا السابقة.

أعرب الضيوف الجدد بصراحة عن شكوكهم. وأثار رئيس التحرير اعتراضات.

«ما هذا السفر عبر الزمن؟ لا يمكن أن يتغطى أي رجل بالتراب بتدحرجه في مفارقة، أليس كذلك؟».

وبعد أن استوعب الفكرة، لجأ إلى الكاريكاتير. ألا توجد أي فُرش لتنظيف الملابس في المستقبل؟ لم يصدق الصحفي أيضًا على الإطلاق، وشارك رئيس التحرير في تلك المهمة اليسيرة من السخرية على الأمر برمته. كان كلاهما من ذلك النوع الجديد من الصحفيين، شابان مرحان، يفتقران إلى الوقار. وعندما كان الصحفي يقول، أو بالأحرى يصيح: «أفاد مراسلنا في صحيفة «داي أفتر تومورو» Day After To-Morrow ....» عاد المسافر عبر الزمن. كان يرتدي ملابس المساء العادية، ولم يبق شيء من التغيير الذي كان قد أذهلني ما عدا مظهره المنهكك.

قال رئيس التحرير ضاحكًا: «هؤلاء الرجال هنا يقولون إنك كنت مسافرًا إلى منتصف الأسبوع القادم! أخبرنا عن ضاحية روزبيري الصغيرة، هل ستفعل؟ هل ستخبرنا بكل شيء؟».

توجه المسافر عبر الزمن صامتًا إلى المكان المحجوز له، وابتسم بهدوء بطريقته القديمة.

قال: «أين قطعة الضأن؟ يا لها من متعة أن أغرز الشوكة في اللحم مرة أخرى!».

صاح رئيس التحرير: «إنها لقصة!».

فقال المسافر عبر الزمن: «قصة أ... أ...! أريد أن آكل شيئًا. لن أقول كلمة واحدة حتى يدخل بعض البروتين إلى معدتي. شكرًا! والملح أيضًا».

قلت: «نريد كلمة واحدة، هل كنت مسافرًا عبر الزمن؟».

«نعم»، قال المسافر عبر الزمن، وهو يومئ برأسه، وفمه مملوء بالطعام.

فقال رئيس التحرير: «سأدفع شلنًا على كل سطر تقوله حرفيًّا». دفع المسافر عبر الزمن كأسه نحو الرجل الصامت، وطرق عليه بظفر إصبعه؛ وكان الرجل الصامت يحدق في وجهه، وبدأ يصب له النبيذ بانفعال. لم تكن الفترة الباقية من العشاء مريحة. عن نفسي، ظلت أسئلة مفاجئة تقفز إلى شفتي، وأتجاسر على القول أنها كانت نفس

الأسئلة المثارة لدى الآخرين. حاول الصحفي تخفيف حدة التوتر بقص فكاهات هيتي بوتر. كرس المسافر عبر الزمن اهتمامه على عشائه، وكان يأكل بشراهة المتشردين. دخن الطبيب سيجارًا، وهو يلقي بنظره نحو المسافر عبر الزمن بطرف عينه. بدا الرجل الصامت أخرقَ أكثر حتى من المعتاد، وشرب الشمبانيا بانتظام وإصرار لمجرد عصبيته الشديدة. وأخيرًا أبعد المسافر عبر الزمن طبقه، وجال ببصره حولنا.

قال: «أعتقد أنني أدين لكم باعتذار. كنت ببساطة أتضور جوعًا. لقد أمضيت وقتًا مذهلًا». مد يده ليتناول سيجارًا، وقطع نهايته. «ولكن هيا بنا إلى غرفة التدخين. فهي قصة طويلة جدًّا يصعب روايتها وأمامنا هذه الأطباق المدهنة». دق الجرس وهو يسير بنا إلى الغرفة المجاورة.

«هل أخبرت بلانك وداش وتشوز عن الآلة؟» كان يسألني وهو يميل إلى الوراء في كرسيه المريح، ذاكرًا أسماء الضيوف الثلاثة الجدد.

قال رئيس التحرير: «لكن هذا الشيء مجرد مفارقة».

فقال المسافر عبر الزمن: «لا يمكنني الجدال اليوم. ليس لدي مانع أن أحكي لكم القصة، لكنني لا أستطيع الجدال». وأضاف: «سأحكي لكم قصة ما حدث لي إذا أردتم، لكن عليكم عدم مقاطعتي. أريد أن أحكيها لكم. ومع الأسف سيبدو أغلبها كذبًا. فليكن! إنها قصة حقيقية، كل كلمة فيها حقيقية. كنت في مختبري الساعة الرابعة،

ومنذ ذلك الحين عشت ثمانية أيام – أيام لم يعشها أي إنسان من قبل! أشعر بإنهاك شديد، لكنني لن أنام حتى أخبركم بالقصة. وبعد ذلك سأخلد إلى النوم. ولكن، لا تقاطعوني! هل توافقون؟».

قال رئيس التحرير: «نوافق!». وردد بقيتنا «نوافق!». عندئذ بدأ المسافر عبر الزمن يروي قصته كما سأسردها. جلس بداية على مقعده، وتحدث كرجل نال منه التعب. بعد ذلك أصبح أكثر حيوية. عندما أكتب هذه القصة، أشعر من فرط حماسي بعجز القلم والحبر، وقبل كل شيء عجزي، عن التعبير عن مدى جودتها. أتصور أنكم ستقرأون بعناية كافية؛ لكنكم لن تروا وجه المتكلم الأبيض الصادق في دائرة المصباح الصغير المضيئة، ولن تسمعوا نبرة صوته، ولن تعرفوا كيف كانت تعبيراته تتقلب مع تقلبات قصته! كان معظمنا، نحن المستمعين، في الظل؛ فلم تكن الشموع مضاءة في غرفة التدخين، ولم يظهر سوى وجه الصحفي وساقَي الرجل الصامت بدءًا من ركبتيه إلى نهايتهما. كنا ننظر إلى بعضنا في البداية، ثم توقفنا واتجهت أبصارنا جميعًا إلى وجه المسافر عبر الزمن.

* * *

الفصل الثالث

وتبدأ القصة

«أخبرت بعضكم يوم الخميس الماضي عن مبادئ آلة الزمن، وجعلتكم ترون الآلة الفعلية نفسها، غير مكتملة، في ورشة العمل. إنها هناك الآن، أبلاها السفر قليلًا بالفعل؛ فقد تصدعت إحدى قضبان العاج، ومال الحاجز النحاسي؛ لكن ما تبقى منها لا يزال جيدًا بدرجة كبيرة. كنت أتوقع الانتهاء منها يوم الجمعة؛ لكنني في ذلك الجمعة، وعندما قاربت على الانتهاء، وجدت أن طول أحد قضبان النيكل يقصُر بمقدار بوصة تحديدًا، فكان يجب أن أُعيد صنعه؛ وبالتالي لم يكتمل العمل إلا هذا الصباح. واليوم، في الساعة العاشرة صباحًا، بدأت أول آلة سفر عبر الزمن عملها. وضعت يدي عليها للمرة الأخيرة، اختبرت جميع المسامير مرة أخرى، ووضعت قطره زيت أخرى على قضيب الكوارتز، ثم جلست فوق مقعدها. أعتقد أن من يصوب مسدسًا إلى رأسه بهدف الانتحار، يشعر بنفس ما شعرت به حينذاك من تساؤلات حول ما سيحدث له بعد ذلك. أمسكت برافعة التشغيل في يد، ورافعة

الإيقاف في اليد الأخرى، ثم ضغطت على الأولى، وعلى الفور تقريبًا ضغطت على الثانية. أعتقد أنني أخذت أدور؛ شعرت بإحساس كابوس السقوط؛ وعندما نظرت حولي، رأيت المختبر كما هو تمامًا. هل حدث أي شيء؟ تشككت للحظة أن ذهني خدعني. ثم نظرت إلى ساعة الحائط. كانت تشير منذ دقيقة، كما تصورت، إلى دقيقة أو نحو ذلك بعد العاشرة؛ أما الآن فهي تقريبًا الثالثة والنصف!».

«أخذت نفسًا عميقًا، وضغطت على أسناني، وأمسكت رافعة التشغيل بكلتا يديَّ، وانطلقت بالآلة وهي تُحدِث صوتًا مجلجلًا. أصبح المختبر ضبابيًّا، ثم مظلمًا. دخلت السيدة واتشيت وسارت نحو باب الحديقة، لكنها على ما يبدو لم ترني. أتصور أنها استغرقت دقيقة أو نحو ذلك لتمر عبر المكان، لكنها بدت لي كأنما تنطلق عبر الغرفة كالصاروخ. قمت بزيادة الضغط على الرافعة لتصل إلى أقصى حدودها. هبط الليل مثل انطفاء مصباح، وفي لحظة أخرى جاء الغد. أصبح مشهد المختبر أكثر خفوتًا وضبابية، ثم ازداد الخفوت وواصل التزايد. عاد مساء الغد، ثم الصباح مرة أخرى، ثم الليل ثانية، والصباح مرة أخرى، أسرع وأسرع. امتلأت أذناي بطنطنة الدوران، وخيمت على عقلي بلبلة غريبة».

«أخشى ألا أتمكن من نقل الأحاسيس الغريبة التي انتابتني خلال السفر عبر الزمن. ليست سارة على الإطلاق. شعرت بمثل ما يشعر به المرء تمامًا عند قيامه بحركة انتقال متهورة عاجزة! شعرت بنفس رهبة

التوقع، فضلًا عن الشعور بالتحطُّم الوشيك. وعندما بدأت الوتيرة تتسارع، أتى صباح بعد ليل، مثل جسم دوار يرفرف ويرفرف. تراءى لي أن المختبر أصبح الآن بعيدًا عني، ورأيت الشمس تقفز بسرعة عبر السماء، تقفز كل دقيقة، وفي كل دقيقة يتزايد ظهور النهار. افترضت أن المختبر دُمر، وأنني أصبحت في الهواء الطلق. كان لدي انطباع خفيف برؤية سقالات، لكن سرعتي كانت شديدة جدًّا على نحو لا يجعلني أعي بأي أشياء تتحرك؛ فأبطأ حلزون يزحف كان يبدو لي منطلقًا بسرعة هائلة. كما كان بريق تعاقب الظلام والضوء يؤلم عيني بشدة. وفي وسط هذا الظلام المتقطع، رأيت القمر يدور بسرعة خلال حالاته الأربعة، من هلال إلى بدر مكتمل، مع لمحات باهتة للنجوم من حوله. حاليًا، وأنا أتحرك مكتسبًا سرعة، اندمج خفقان الليل والنهار في لون رمادي واحد متواصل؛ وتلونت السماء بزرقة داكنة رائعة، لون مضيء باهر مثل لون باكورة الشفق؛ وأصبحت الشمس المهتزة شريطًا من نار، قوسًا متألقًا في الفضاء، والقمر شريطًا متذبذبًا أكثر خفوتًا؛ لم أستطع رؤية أي من النجوم، اللهم إلا دائرة أكثر لمعانًا تومض بين الحين والآخر وسط الزُّرقة».

«كان المشهد ضبابيًّا وغامضًا. ما زلت عند منحدر التل الذي يقع فيه هذا البيت الآن، ويعلوني نتوء التل الرمادي الداكن. رأيت الأشجار تنمو وتتغير مثل نفث البخار، هي الآن بنية اللون، والآن خضراء؛ لقد نمت، وانتشرت، وتقلبت، وماتت. ورأيت مبانيَ ضخمة

ترتفع باهتة وجميلة، وتمر مثل الأحلام. بدا سطح الأرض كله في حالة تغير- يذوب ويتدفق أمام عينيَّ. تسارعت العقارب الصغيرة على قرص العداد الذي يسجل سرعتي. ولاحظت الآن أن حزام الشمس يتأرجح صعودًا وهبوطًا من انقلاب شمسي لآخر في دقيقة أو أقل، مما يعني أن سرعتي تقطع ما يزيد على سنة في دقيقة؛ ودقيقة بدقيقة غطى الثلج الأبيض العالَم ثم اختفى، وأعقبته فترة قصيرة من خضرة الربيع المشرقة».

«والآن، خفَّت حدة الأحاسيس المزعجة التي انتابتني في البداية، وتحولت أخيرًا إلى نوع من البهجة الهستيرية. لاحظت بالفعل أن الآلة تتأرجح بشكل أخرق، لم أتمكن من تفسيره. لكن ارتباك ذهني حال دون الاهتمام بذلك. من هنا، وبنوع من تزايد الجنون الذي انتابني، اندفعت نحو المستقبل. في البداية نادرًا ما كنت أفكر في التوقف، ونادرًا ما كنت أفكرُ في أي شيء سوى هذه الأحاسيس الجديدة. أما الآن فقد تنامت في ذهني سلسلة من الانطباعات مفعمة بالحيوية،... فضول بعينه، تصحبه رهبة معينة،... حتى استحوذت على تفكيري بالكامل. فهذه التطورات الغريبة التي مرت بها البشرية، وهذا التقدم الرائع الذي حققته حضارتنا البدائية، كان يمكن ألا يظهر عندما أنظر عن قرب إلى العالم الغامض المراوغ الذي يتسابق ويتقلب أمام عينيَّ! لقد رأيت حولي أبنية عظيمة رائعة تقف شامخة، أضخم من أي مبنى في زماننا، ومع ذلك بدت مبنية من الوميض والضباب. رأيت اخضرارًا

أكثر ثراءً يتدفق أعلى التل، ويستمر دون أي فاصل شتوي. أما الأرض، فكانت تبدو جميلة جدًّا حتى من خلال غلالة ارتباكي. من هنا طرأت إلى ذهني فكرة التوقف».

«تكمن غرابة الخطورة في إمكانية أن أعثر على بعض المواد في المكان الذي أشغله، أو تشغله الآلة. لكن ذلك بالكاد ما كان مهمًّا، ذلك أنني سافرت بسرعة كبيرة عبر الزمن ولذا كنت، إن جاز التعبير، واهنًا.. انزلق مثل البخار خلال الفجوات الفاصلة بين المواد المنتشرة حولي! لكن فكرة التوقف كانت تعني أن أحشر نفسي، جزيئًا بجزيء، داخل أي شيء يعترض طريقي؛ أي أجعل ذراتي تقوم باتصال حميم مع ذرات العقبة التي تعترضني، مما قد ينتج عنه تفاعل كيميائي عويص -ربما انفجار بعيد المدى- يقذفني وآلتي خارج الكون الراسخ، خارج جميع الأبعاد الممكنة، إلى المجهول. لقد طرأ هذا الاحتمال إلى ذهني مرات ومرات خلال صنعي للآلة، لكنني حينذاك تقبلته راضيًا كخطر لا مفر منه، لكنه أصبح أحد المخاطر التي يجب على المرء خوضها! والآن وقد أصبح الخطر حتميًّا، لم أعُد أراه بنفس عين الرضا. ففي الحقيقة، كانت أعصابي مرهقة بدرجة كبيرة نتيجة لتلك الغرابة المطلقة لكل شيء، وصرير الآلة وتأرجحها بما يبعث على الغثيان، وقبل كل شيء الشعور بالسقوط المطول. قلت لنفسي لا يمكن أن أتوقف أبدًا، لكنني مع عاصفة من النزق عقدت العزم على التوقف فورًا. وقمت كأحمق نفد صبره بسحب الرافعة، فأخذت الآلة

تترنح بقوة، مما قذفني بشدة إلى الهواء».

«أسمع صوت قصف الرعد في أذني. ربما أصابني الذهول للحظة. وها هو وابل قاس من البرد يهمس حولي وأنا جالس على عُشب لين أمام الآلة التي انقلبت. لا يزال كل شيء يبدو رماديًّا، لكنني لاحظت الآن انتهاء التشوش في أذنيَّ. نظرت حولي. يبدو أنني جالس فوق مرجة عشبية صغيرة في حديقة محاطة بشجيرات نبات الوردية (الردندرة)[٤]، ولاحظت أن أزهارها البنفسجية والأرجوانية تتساقط منهمرة من ضربات كريات البرد. علقت كريات الثلج المتواثبة الراقصة في سحابة صغيرة فوق الآلة، وانسابت ممتدة على الأرض كالدخان. وفي لحظة، أصبحتُ مبللًا كلية. قلت: «يا له من حسن الضيافة لرجل سافر سنوات لا تُعد ولا تُحصى لرؤيتكم!».

«فكرت حاليًا في حماقتي لأنني تركت نفسي للبلل. وقفت، ونظرت حولي. لاح خلف شجيرات الوردية، وعبر ضبابية الأمطار الغزيرة، شكل ضخم باهت، يبدو منحوتًا من الحجر الأبيض. لكنني لم أتمكن من رؤية أي شيء آخر في هذا العالم».

«يصعب وصف مشاعري. مع ازدياد نحافة أعمدة الثلج، رأيت الشكل الأبيض أكثر وضوحًا. كان شديد الضخامة، بحيث لامست شجرة بتولا فضية كتفه. إنه من الرخام الأبيض، ويشبه من حيث

(٤) الردندرة **rhododendron**: نوع من النباتات يتميز بالشجيرات والأشجار الصغيرة، والأوراق الحلزونية، والزهور الرائعة. المترجمة.

الشكل أبا الهول المُجنح، لكن جناحيه، بدلًا من امتدادهما رأسيًّا على الجانبين، امتدا بطريقة تجعلهما يبدوان مرفرفين. كانت قاعدة التمثال من البرونز، تغطيها طبقة سميكة من الصدأ. تصادف أن وجهه في اتجاهي؛ بدت عيناه غير المبصرتين ترقبني؛ مع ظل واهن لابتسامة على شفتيه. لقد أبلاه تعرضه للطقس إلى حد كبير، يثير تصورًا مزعجًا بأنه مريض. وقفت أتأمله، لفترة قصيرة- نصف دقيقة، ربما، أو نصف ساعة. بدا أنه يتقدم ويتراجع مع زيادة كثافة أو نحافة الثلوج أمامه. وأخيرًا أدرت بصري بعيدًا عنه للحظة، ورأيت الستار الثلجي وقد أخذ يتلاشى، كما بدأت السماء تضيء واعدة بشروق الشمس».

«تفحصت الشكل الأبيض الرابض مرة أخرى، وتنبهت فجأة إلى كل ذلك التهور الذي اتسمت به رحلتي. ماذا يمكن أن يظهر عندما يتراجع ذلك الستار الضبابي تمامًا؟ ماذا لم يحدث للبشر؟ ماذا إذا تنامت القسوة متحولة إلى ولع شائع؟ ماذا إذا فقد الجنس البشري آدميته خلال هذه الفترة الزمنية وتطور إلى شيء غير إنساني، وغير عطوف، ويتمتع بقوة ساحقة؟ قد أبدو أنا كحيوان متوحش من العالم القديم، مجرد أكثر إثارة للفزع والاشمئزاز بالنسبة لمظهرنا المعتاد- مخلوق كريه يجب قتله دون إبطاء».

«رأيت بالفعل أشكالًا أخرى هائلة، مبانيَ ضخمة ذات متاريس معقدة وأعمدة طويلة، ومنحدرًا لأحد التلال المشجرة يتسلل إلى نظري خافتًا مع هدوء العاصفة. تملكني خوف مذعور. التفتُ بجنون

إلى آلة الزمن، وسعيت جاهدًا إلى إعادتها لوضعها، وخلال ذلك سطعت أشعة الشمس في العاصفة الرعدية. انحسرت الأمطار الرمادية وأخذت تتلاشى كأنها ذيل لكساء شبح. أما فوقي، في الزرقة الشديدة لسماء الصيف، كانت بعض السحب ذات اللون البني الفاتح تتحرك حركة دائرية في العدم. ظهرت المباني الكبيرة حولي واضحة ومميزة، تتلألأ ببلل العاصفة الرعدية، وانتقتها كرات الثلج التي لم تذب لتتراكم عليها خلال مسارها وكستها باللون الأبيض. شعرت أنني أقف عاريًا في عالَم غريب. ربما شعرت كما قد يشعر طائر في الهواء النقي وهو يعرف أن الصقر يحلق فوقه بأجنحته للانقضاض عليه. تنامى خوفي إلى حد الهلع. التقطت أنفاسي، وأطبقت على أسناني، ومرة أخرى أحكمت قبضتي بقوة على الآلة بمعصمي وركبتي. استجابت الآلة لمحاولتي اليائسة وانقلبت، مرتطمة بذقني بعنف. وضعت إحدى يديَّ على السرج، والأخرى على الرافعة، ووقفت لاهثًا بقوة محاولاً الصعود إلى الآلة مرة أخرى».

«لكنني استعدت شجاعتي مع تعديل وضع الآلة. نظرت وأنا أكثر فضولًا وأقل خوفًا إلى عالَم المستقبل البعيد هذا. ومن خلال فتحة دائرية، عالية في جدار أقرب بيت، رأيت مجموعة من الشخصيات ترتدي ملابس ناعمة أنيقة. لقد شاهدوني، وأداروا وجوههم نحوي».

«سمعت أصواتًا تقترب مني. ظهرت عبر الشجيرات بجوار أبي الهول الأبيض رؤوس وأكتاف لرجال يركضون. برز أحدهم في الممر

المؤدي مباشرة إلى العشبة الصغيرة التي وقفت عليها بآلتي. كان كائنًا نحيلًا -ربما بلغ طوله أربعة أقدام- يرتدي سترة أرجوانية، وحول خصره حزام جلدي. كان يرتدي صندلًا أو حذاء نصفيًّا، لم أستطع أن أميز بوضوح؛ وكانت ساقاه عاريتين حتى ركبتيه، كما كان رأسه عاريًا. ولأول مرة ألاحظ مدى دفء الهواء».

«لقد أذهلني جمال ورقة هذا الكائن، لكنه كان واهنًا بدرجة لا توصف. ذكرني وجهة المتوهج بأجمل نوع من المصابين بمرض السل، ذلك الجمال المحموم الذي اعتدنا أن نسمع عنه الكثير. وبرؤيته، استعدت ثقتي فجأة وأبعدت يديَّ عن الآلة».

* * *

الفصل الرابع

العصر الذهبي

«في لحظة أخرى، وقفت وهذا الكائن الهزيل من المستقبل وجهًا لوجه. جاء نحوي مباشرة وضحك وهو ينظر في عينيَّ. أذهلني أن سلوكه لم يحمل أي علامة على الخوف. ثم التفت إلى الاثنين الآخرين اللذين كانا يتبعانه، وتحدث معهم بلغة غريبة شديدة العذوبة وملفوظة بوضوح».

«وصل آخرون، وأصبحت مُحاطًا بمجموعة صغيرة، ربما ثمانية أو عشرة، من هذه المخلوقات الفاتنة. توجه لي أحدهم بالحديث. تبادر إلى ذهني، ويا للغرابة، أن صوتي سيكون مزعجًا ورنانًا بشدة بالنسبة لهم. ولذا هززت رأسي، مشيرًا إلى أذنيَّ، ثم هززت رأسي مرة أخرى. تقدم خطوة نحوي مترددًا، ثم لمس يدي. شعرت بعد ذلك بمخالب ناعمة صغيرة أخرى على ظهري وأكتافي. كانوا يريدون التأكد من أنني حقيقي. لم يكن هناك شيء يثير القلق على الإطلاق في ذلك كله. بل كان هناك، في الواقع، شيء يبعث على الثقة في

هؤلاء القوم الصغار الظرفاء، دماثة لطيفة، وبساطة طفولية، إلى جانب مظهرهم الضعيف الذي جعلني أتخيل نفسي ألقيهم أرضًا كما في لعبة البولينج. لكنني أقدمت على حركة مفاجئة لتحذيرهم، عندما رأيت أياديهم الوردية الصغيرة تتحسس آلة الزمن. ولحسن الحظ، تذكرت قبل فوات الأوان خطرًا كنت قد نسيته حتى الآن، فأمسكت بقضبان الآلة وفككت الروافع الصغيرة التي يمكن أن تجعل الآلة تتحرك، ووضعتها في جيبي. ثم التفت مرة أخرى لأرى كيف يمكنني التواصل معهم».

«تفحصت ملامحهم عن قرب، فرأيت ميزات خاصة أخرى من نوع جمال الشخصيات التي يصورها خزف درسدن. فالشعر، وكان مجعدًا لديهم جميعًا، يصل تحديدًا إلى الرقبة والخدين؛ ولا يوجد أي احتمال ضعيف لوجود شعر على وجوههم، وآذانهم متفردة في صغرها، وأفواههم صغيرة وذات شفاه لونها أحمر فاتح ورفيعة إلى حد ما، وذقونهم الصغيرة مدببة. أما عيونهم فكانت كبيرة ولطيفة؛ وحتى عندئذ توهمت -قد يبدو هذا غرورًا من جانبي- أن اهتمامهم بي أقل مما توقعته».

«ونظرًا لعدم بذلهم أي جهد للتواصل معي، وإنما وقفوا حولي ببساطة يبتسمون ويتحدثون مع بعضهم بنغمات ناعمة كهديل الحمام، فقد بدأت الحديث مُشيرًا إلى آلة الزمن وإلى نفسي؛ ثم أشرت إلى الشمس، بعد ترددي للحظة للتفكير في كيفية التعبير عن الزمن. وعلى

الفور، قام كائن صغير مليح وطريف منهم، يرتدي زيًّا من اللونين الأرجواني والأبيض، وأدرك إيماءتي، ثم أدهشني بتقليد صوت الرعد».

«ذُهلت للحظة، على الرغم من أن مغزى إيماءته كان واضحًا تمامًا. وفجأة طرأ سؤال في ذهني: هل هذه الكائنات حمقاء؟ ربما بالكاد ما تدركون مدى دهشتي. فقد كنت أتوقع دائمًا أن الناس في عام ثمانمائة ألف (٨٠٠٠٠٠) سيكونون بالنسبة لنا أكثر معرفة وفنًّا وكل شيء بشكل لا يصدق. ثم فجأة سألني أحدهم سؤالًا أظهر أن مستواه الفكري يماثل مستوى أحد أطفالنا في عمر خمس سنوات؛ فقد سألني، في الواقع، ما إذا كنت قد أتيت من الشمس في عاصفة رعدية! لقد أطلق هذا السؤال العنان لحُكمي الذي تركته معلقًا دون حسم على ملابسهم، وأطرافهم الضعيفة الهزيلة، وملامحهم الهشة. تدفقت خيبة أمل إلى ذهني. وشعرت للحظة أنني بنيت آلة الزمن دون جدوى».

أومات برأسي، وأشرت إلى الشمس، وقدمت لهم عرضًا حيًّا مقلدًا قصف الرعد على نحو أذهلهم. تراجعوا جميعًا خطوة أو أكثر بسرعة، وانحنوا. ثم تقدم أحدهم نحوي ضاحكًا، وهو يحمل طوقًا من الزهور الجميلة، الجديدة تمامًا بالنسبة لي، ووضعها حول عنقي. استُقبِلت الفكرة بتصفيق إيقاعي؛ والآن يركضون جميعًا جيئة وذهابًا للحصول على زهور، ويلقون بها نحوي ضاحكين حتى غطتني تمامًا

تقريبًا. ولأنكم لم تروا من قبل ما يشبه ذلك، يصعب عليكم تخيل مدى ما تبدعه الزهور من رقة وروعة عبر سنوات لا تُحصى من الزراعة. ثم اقترح أحدهم أن لعبتهم يجب أن تُعرض في أقرب مبنى، وبالتالي قادوني عبر أبي الهول المصنوع من الرخام الأبيض -الذي كان يبدو أنه يرقبني طوال الوقت مبتسمًا من دهشتي- وفي اتجاه صرح رمادي ضخم من حجر متآكل. خلال سيري معهم مرت بذهني، بطرافة لا تقاوم، ذكرى توقعاتي الواثقة بأجيال قادمة عميقة الرزانة والفكر».

«أما المبنى فكان مدخله كبيرًا، وأبعاده هائلة في مجملها. انشغلت بطبيعة الحال بالحشود المتزايدة من هؤلاء القوم الصغار، وبالبوابات الكبيرة المفتوحة أمامي التي بدت كفم مفتوح يتثاءب أمامي وتكتنفه الظلال والغموض. كان انطباعي العام عن العالَم الذي رأيته من فوق رؤوسهم هو أنه امتداد لانهائي متشابك من الشجيرات والأزهار الجميلة، حديقة مهملة منذ فترة طويلة ومع ذلك خالية من الأعشاب الضارة. رأيت عددًا من السنابل الطويلة ذات زهور بيضاء غريبة، ربما يصل طولها إلى قدم وتظهر عبر امتداد البتلات المرنة. كانت تنمو مبعثرة، كما لو أنها برية، بين الشجيرات المتنوعة؛ لكنني لم أختبرها عن قرب حينذاك. تركت آلة الزمن مهجورة فوق عشب أزهار الوردية».

«كان قوس المدخل منحوتًا بأناقة، لكنني لم أنظر بطبيعة الحال إلى النحت عن قرب، على الرغم من أنني توهمت رؤية الزخارف

الفينيقية القديمة خلال مروري، وصُدمت لأنها كانت محطمة بشكل سيئ للغاية وبُليت بفعل الجو. التقى بي عند المدخل المزيد من هؤلاء القوم الصغار الذين يرتدون ملابس زاهية، فدخلنا، وكنت أرتدي ملابس القرن التاسع عشر الرثة، ويبدو مظهري شديد التنافر، حيث كنت مكللًا بالزهور، وتحيط بي كتلة دائرية من الملابس ذات ألوان فاتحة وأطراف بيضاء لامعة، في دوامة إيقاعية من الضحك والحديث الضاحك».

«ينفتح المدخل الكبير على قاعة ضخمة نسبيًّا بنية اللون. كان السقف في الظل، وجزء من النوافذ مغطى بالزجاج الملون، والجزء الآخر بلا زجاج، يمر عبرها ضوء خافت. أما الأرضية، فقد صُنعت من كتل ضخمة من معدن أبيض شديد الصلابة، ليس صفائح أو ألواحًا، بل كتل، وكانت متآكلة، كما تصورت، بفعل سير الأجيال السابقة عليها جيئة وذهابًا، بحيث تعمقت شقوقها عبر الطرق الأكثر ارتيادًا. وطوال الطريق كان هناك عدد لا يُعد ولا يُحصى من الموائد المصنوعة من ألواح من الحجر المصقول، ترتفع ربما مسافة قدم من الأرضية، وفوقها أكوام من الفواكه. تعرفت من بينها على نوع من التوت الضخم والبرتقال، لكن معظمها كان غريبًا».

«تناثر بين الموائد عدد كبير من الوسائد. جلس عليها من أوصلوني، وأشاروا لي أن أجلس مثلهم. ودون أي مراسم على الإطلاق، بدأوا يأكلون الفاكهة بأيديهم، ويلقون بقشور الثمار

وقلوبها وغيرها في فتحات مستديرة على جوانب الموائد. لم أكن كارهًا للاقتداء بهم، إذ شعرت بالعطش والجوع. وكنت وأنا أفعل ذلك، أجول بعيني في القاعة على راحتي».

«ربما أكثر ما أدهشني هو مظهرها المتهالك. فقد كانت النوافذ ذات الزجاج الملون، الذي لم يعرض سوى نموذج هندسي، مكسورة في العديد من أماكنها، والستائر التي عُلِّقت عبر النهاية السفلية كانت تغطيها طبقة سميكة مع التراب. ولفت انتباهي أن زاوية المائدة الرخامية القريبة مني كانت مشقوقة. ومع ذلك، كان التأثير العام شديد الثراء والخلابة. ربما ضمت القاعة بضع مئات من الناس يتناولون الطعام، ومعظمهم، الذين يجلسون بالقرب مني قدر الإمكان، ينظرون نحوي باهتمام، وتلمع عيونهم الصغيرة على الفاكهة التي يأكلونها، ويرتدون جميعًا نفس الملابس الحريرية الناعمة رغم متانتها».

«بالمناسبة، كانت الفاكهة هي كل ما لديهم من غذاء. فهؤلاء القوم، في ذلك المستقبل البعيد، نباتيون بصرامة، وعندما كنت معهم، وعلى الرغم من رغبتي الشديدة في تناول اللحم، اضطررت إلى أن أكون من آكلي الفواكه أيضًا. وفي الواقع، عرفت بعد ذلك أن الخيول، والماشية، والأغنام، والكلاب، قد تبعت الأكتوصور (السمك السحلية) إلى الانقراض. لكن الفاكهة كانت لذيذة جدًّا؛

وبخاصة تلك التي بدت متوفرة طوال الوقت الذي أمضيته هناك – ثمرة تشبه الطحين ذات قشرة من ثلاثة جوانب– كانت جيدة بشكل خاص، وجعلتُها وجبتي الأساسية. في البداية كنت في حيرة من هذه الثمار والزهور الغريبة التي رأيتها، لكنني في وقت لاحق بدأت أدرك أهميتها».

«على أي حال، فأنا أحكي لكم الآن عن عشاء الفاكهة الذي تناولته في المستقبل البعيد. وسرعان بعد أن أرحت شهيتي، صممت على محاولة تعلم لغة هؤلاء القوم الصغار. كان هذا بوضوح الشيء التالي الذي أقوم به. بدت الفاكهة شيئًا مناسبًا للبدء، فأمسكت ثمرة وبدأت في إصدار سلسلة من أصوات وإشارات التساؤل. وجدت صعوبة كبيرة في إيصال المعنى الذي أريده. في البداية قوبلت جهودي بتحديق ينم عن المفاجأة أو بضحك متواصل، ولكن يبدو الآن أن مخلوقًا صغيرًا أشقر الشعر قد فهم مقصدي وكرر اسمًا. اضطروا إلى الثرثرة وشرح الموضوع مطولًا إلى بعضهم، وكانت أولى محاولاتي لتقليد أصوات لغتهم الرقيقة الرائعة سببًا في قدر هائل من التسلية الحقيقية، وإن كانت تسلية فظة. مع ذلك، شعرت أنني مدرس وسط أطفال، وواصلت مثابرًا، والآن تعلمت مجموعة من الأسماء على الأقل؛ ثم تعرفت على ضمائر الإشارة، وحتى الفعل 'يأكل'. لكن الدرس كان بطيئًا، وسرعان ما شعر القوم الصغار بالتعب وأرادوا التخلص من أسئلتي، وبالتالي عقدت العزم، نتيجة

للضرورة، أن أتركهم يعطونني الدروس في جرعات صغيرة عندما يريدون. وقبل مرور فترة طويلة، وجدت أن الجرعات كانت ضئيلة، فلم ألتقِ من قبل بقوم أكثر كسلًا أو أسرع شعورًا بالتعب مثلهم».

❊ ❊ ❊

الفصل الخامس

غروب الشمس

«سرعان ما اكتشفت شيئًا غريبًا عن هؤلاء القوم الصغار الذين يستضيفونني، وهو فقدانهم للاهتمام. فقد يأتون لي وهم يصيحون بحماس من الاندهاش مثل الأطفال، لكنهم مثل الأطفال أيضًا سرعان ما يتوقفون ليتفحصوني، ثم يهرعون إلى لعبة أخرى. انتهى العشاء وانتهت بدايات محاولاتي للتخاطب معهم، ولاحظت للمرة الأولى أن تقريبًا جميع من أحاطوا بي في البداية غير موجودين. ومن الغريب أيضًا مدى سرعة فتور اهتمامي بهؤلاء القوم الصغار. خرجت من البوابة إلى العالم المُشمس مرة أخرى بمجرد شعوري بالشبع. كنت ألتقي دومًا بالمزيد من أناس المستقبل هؤلاء، وكانوا يتتبعوني لمسافة قصيرة وهم يثرثرون ويضحكون مني، وبعد أن يبتسموا ويومئوا بطريقة ودية يتركونني لحالي مرة أخرى».

«هبط هدوء المساء على العالم عندما خرجت من القاعة الكبيرة، وكان المشهد مضاء بوهج الشمس الدافئة الآخذة في الغروب. أثارت الأشياء ارتباكي الشديد في البداية؛ فقد كان كل شيء مختلفًا تمامًا عن العالم الذي أعرفه، حتى الزهور. كان المبنى الكبير الذي تركته يقع على منحدر واد لنهر واسع، لكن موقع نهر التيمز قد تغير، ربما على بعد ميل من موقعه الحالي. عقدت العزم على الصعود إلى قمة جبل يبعد حوالي ميل ونصف، حيث يمكنني النظر إلى كوكبنا نظرة أوسع نطاقًا في سنة ٨٠٢٧٠١ بعد الميلاد. ويجب أن أشرح أن ذلك التاريخ هو ما سجلته مؤشرات آلتي».

«كنت يقظًا خلال سيري لكل انطباع قد يساعدني على تفسير هذه الحالة من الفخامة المتهدمة التي وجدت عليها العالم، حيث أصبح خربًا بالفعل. فالطريق الصغير إلى أعلى التل، على سبيل المثال، كان عبارة عن كومة كبيرة من الجرانيت، مختلطة بكتل من الألومنيوم، متاهة شاسعة من الجدران المتعرجة وأكوام الحطام، يوجد في وسطها أكوام سميكة من نباتات جميلة جدًّا تشبه نباتات معبد الباجودا البوذي -ربما نبات القُراص-، على أن أوراقها كانت محاطة بلون بني رائع، ولا تلدغ مثل نبات القُراص. من الواضح أنها بقايا مهجورة لبناء ضخم، لكنني لم أستطع أن أحدد الهدف الذي بُني من أجله. لقد كان مُقدرًا لي أن أمر في وقت لاحق هنا بتجربة غريبة جدًّا، الإشارة الأولى لاكتشاف ما زال غريبًا، لكنني سأتحدث عنه في

الوقت المناسب».

«انتابني تفكير مفاجئ وأنا أنظر حولي من شرفة كنت أستريح فيها قليلًا، فقد أدركت أنني لم ألمح أي منازل صغيرة. ويبدو أن البيت الوحيد، وربما حتى الأسرة الوحيدة، قد اختفت. هنا وهناك، بين الخضرة، كانت توجد مبانٍ مثل القصور، لكن البيوت والأكواخ، التي تشكل السمات المميزة لمشاهدنا الطبيعية الإنجليزية، قد اختفت».

«قلت لنفسي: «هل هي الشيوعية؟»».

«وفي أعقاب ذلك واتتني فكرة أخرى. تأملت نصف دزينة الأشخاص الصغار الذين كانوا يتعقبونني. وفجأة أدركت أنهم جميعًا يرتدون نفس الزي، ولديهم نفس الوجوه الناعمة خالية الشعر، ونفس الأطراف المستديرة كأطراف النساء. ربما يبدو غريبًا أنني لم ألحظ ذلك من قبل. لكن كل شيء كان غريبًا جدًّا. والآن رأيت الحقيقة واضحة تمامًا. كان هؤلاء القوم في المستقبل متشابهين سواء في الملبس أو في جميع اختلافات البنية والسلوك التي تحدد الفروق بين الجنسين. ورأت عيني الأطفال كصورة مصغرة من والديهم. وعندئذ اعتبرت أن أطفال ذلك الزمن ينضجون مبكرًا، بدنيًّا على الأقل، وقد وجدت بعد ذلك أدلة وفيرة تؤكد وجهة نظري».

«عندما رأيت السهولة والأمن الذي يعيش فيها هؤلاء الناس،

شعرت أن هذا التشابه الوثيق بين الجنسين هو، قبل كل شيء، ما يمكن أن يتوقعه المرء؛ إذ إن قوة الرجل ورقة المرأة، ومؤسسة الأسرة، والفرق بين المهن، كلها مجرد ضرورات نضالية في عصر القوة البدنية. عندما يتحقق التوازن والوفرة لدى السكان، تصبح كثرة الإنجاب نقمة وليست نعمة للدولة؛ وعندما يندر العنف وتعيش الذرية آمنة، تقل –أو لا توجد في الواقع– ضرورة لوجود أسرة فاعلة، ويختفي التخصص بين الجنسين فيما يتعلق باحتياجات أطفالهم. إننا نرى بعض بدايات هذا حتى في عصرنا، وقد اكتمل في هذا العصر المستقبلي. يجب أن أُذكِّركم أن هذه كانت تكهناتي حينذاك. لكنني أدركت في وقت لاحق أن الحقيقة مختلفة تمامًا».

«بينما كنت أتأمل هذه الأشياء، لفت انتباهي مبنى صغير جدًّا، كأنه بئر أسفل قبة. فكرت بشكل عابر في غرابة استمرار وجود الآبار، ثم استأنفت خيط تكهناتي. لم تكن هناك مبانٍ كبيرة في اتجاه أعلى التل، ونظرًا لأن قدرتي على السير كانت تبدو معجزة بالفعل، فقد تركوني بمفردي للمرة الأولى. وبشعور غريب من الحرية والمغامرة، صعدت إلى قمة التل».

«وجدت هناك مقعدًا مصنوعًا من معدن أصفر لم أتعرف عليه، تآكلت بعض مواضعه وعلاه نوع من الصدأ وردي اللون وغطت الطحالب الناعمة نصفه، أما الذراع فكانت مدلاة ومنحوتة بما يشبه

حيوان الجرفين الخرافي. جلست على المقعد، وتطلعت إلى المشهد العريض لعالمنا القديم تحت غروب شمس هذا اليوم الطويل. كان المشهد جميلًا وعذبًا كما لم أره سابقًا. توارت الشمس بالفعل وراء الأفق، وبدا الغرب مشتعلًا كالذهب، تتخلله أشرطة أفقية من اللونين الأرجواني والقرمزي. وفي الأسفل، كان وادي نهر التيمز، حيث يمتد النهر كشريط من الفولاذ المصقول. لقد تحدثت بالفعل عن القصور الكبيرة المتناثرة كنقاط بين الخضرة المتنوعة، بعضها كان أنقاضًا والبعض الآخر لا يزال مسكونًا. كان يرتفع هنا وهناك صرحٌ فضيٌّ أو أبيض في حديقة خرائب كوكب الأرض، كما كان يظهر هنا وهناك ذلك الخط العمودي الحاد لبعض القباب أو المسلات. لا يوجد أي سياج، أو أي علامة على حقوق المِلكية، ولا أي أدلة على الزراعة؛ لقد أصبحت الأرض كلها حديقة».

«بدأت خلال مشاهداتي تفسير الأشياء التي رأيتها، وتشكلت لدي في المساء صورة لها كالتالي (أدركت فيما بعد أنني لم أحصل سوى على نصف الحقيقة، أو مجرد لمحة عن جانب واحد من الحقيقة): تصورت أنني جئت إلى فترة تسير فيها الإنسانية على طريق الزوال. لقد جعلني غروب الشمس بحُمرته أفكر في أفول البشرية. وبدأت أدرك للمرة الأولى غرابة عواقب الجهود الاجتماعية التي نتشابك معها في الوقت الحاضر. لكننا، عندما نتأملها، نجدها عواقب منطقية تمامًا. فالقوة نتيجة للحاجة؛ والأمن يتطلبه الضعف.

أما العمل من أجل تحسين ظروف الحياة -وهو العملية الحضارية بحق التي تجعل الحياة أكثر أمنًا- فقد قطع أشواطًا منتظمة وصولًا إلى الذروة. وتتابعت انتصارات الإنسانية الموحدة على الطبيعة. والأشياء التي هي الآن مجرد أحلام، أصبحت مشروعات وُضعت عمدًا في متناول أيدينا ومضينا بها قدمًا. وكان الحصاد ما رأيته!».

«فقبل كل شيء، لا تزال الصحة العامة والزراعة اليوم في المرحلة البدائية. لم يهاجم العلم في عصرنا سوى جزء ضئيل من مجال الأمراض البشرية، لكنه يواصل بثبات ومثابرة نشر عملياته. تقضي الزراعة والبستنة لدينا على الأعشاب الضارة، مجرد هنا وهناك، وربما تستنبت مجموعة أو أخرى من النباتات المفيدة، تاركة العدد الأكبر من النباتات يكافح بقدر إمكانه من أجل تحقيق التوازن. نحن نعمل على تحسين نباتاتنا وحيواناتنا المُفضَلة تدريجيًّا -وعددهم قليل- عن طريق الانتقاء الوراثي للسلالات؛ فالآن يوجد خوخ جديد وأفضل، وعنب دون بذور، وأزهار أحلى وأكبر، وسلالات من الماشية أكثر ملاءمة. نحن نقوم بتحسينهم تدريجيًّا، لأن مُثُلنا مبهمة ومؤقتة، ومعارفنا محدودة للغاية؛ ولأن الطبيعة أيضًا حذرة وبطيئة تجاه أيادينا الخرقاء. في يوم ما سيكون هذا أفضل تنظيمًا، وسيظل أفضل. هذا هو انجراف التيار برغم الدوامات. سيصبح العالم كله ذكيًّا ومتعلمًا ومتعاونًا؛ وستتحرك الأمور أسرع وأسرع نحو إخضاع الطبيعة. وفي نهاية المطاف، سنقوم بحكمة وعناية بتعديل التوازن

بين الحياة الحيوانية والنباتية لتلائم احتياجاتنا البشرية».

«أقول إن هذا التكيف يجب أن يكون قد تم، وبشكل جيد: تم بالفعل لجميع الأزمان، في مساحة الزمن التي قفزت عبرها آلتي. كان الهواء خاليًا من الحشرات، والأرض خالية من الأعشاب الضارة أو الفطريات؛ وفي كل مكان كانت توجد الفواكه والأزهار الجميلة الحلوة والمُبهِجة؛ والفراشات المتألقة الرائعة تطير هنا وهناك. وكان المثل الأعلى للطب الوقائي قد تحقق، حيث تم القضاء على الأمراض. لم أشهد دليلًا على وجود أي من الأمراض المعدية خلال فترة وجودي هناك. وسأخبركم فيما بعد أنه حتى عمليات التعفن والتسوس قد تأثرت بعمق بهذه التغييرات».

«تحققت أيضًا انتصارات اجتماعية. رأيت بشرًا يقيمون في مساكن رائعة، ويلبسون ملابس متألقة، وحتى الآن لم أجدهم كادحين. لا توجد أي علامات على الصراع، سواء الاجتماعي أو الاقتصادي. اختفت تمامًا المتاجر، والإعلانات، وحركة المرور، وكافة أنواع التبادلات التجارية التي تشكل بنية عالمنا. كان من الطبيعي في ذلك المساء الذهبي أن أقفز إلى فكرة الجنة الاجتماعية».

«جال بخاطري أن صعوبة الزيادة السكانية قد وجدت حلًّا، وتوقف السكان عن الزيادة».

«لكن هذا التغيير في الظروف يصاحبه حتمًا عمليات تكيف

مع التغيير الحادث. ما سبب ذكاء وحيوية البشر؟ ما لم تكن العلوم البيولوجية كتلة من الأخطاء. المشقة والحرية: هي الظروف التي في ظلها يتمكن القوي والحاذق من البقاء، ويخفق الأضعف؛ الظروف التي تؤكد تحالف المخلصين من الرجال الأكفاء، وضبط النفس، والصبر، واتخاذ القرار. كما أن مؤسسة الأسرة، والمشاعر التي تنشأ داخلها، والغيرة الشرسة، والحنان تجاه الذرية، والتفاني الذاتي لدى الأبوين، كلها وجدت المبررات والدعم في الأخطار المحدقة التي يتعرض لها الشباب. والآن، أين تلك الأخطار المحدقة؟ هناك شعور يبرز، وسوف ينمو، ضد الغيرة الزوجية، وضد شراسة الأمومة، وضد جميع أنواع العاطفة؛ إنها أشياء غير ضرورية الآن، وأشياء تجعلنا كائنات وحشية لا تشعر بالراحة، وتعوق الحياة الراقية والممتعة».

«فكرت في الهزال البدني لهؤلاء القوم وافتقارهم إلى الذكاء، وتلك الأنقاض الضخمة الوفيرة، وهو ما عزز اعتقادي بانتصار الطبيعة بالكامل. فبعد المعركة يأتي الهدوء. كانت البشرية قوية ونشطة، وذكية، واستخدمت جميع طاقاتها الوفيرة لتغيير الظروف التي تعيش في ظلها. والآن جاء رد الفعل تجاه الظروف المتغيرة».

«في ظل الظروف الجديدة من الراحة والأمن المثاليين، فإن الطاقة التي لا تهدأ، وفي حالتنا هي القوة، سوف تصبح ضعفًا. حتى في عصرنا، فإن بعض الميول والرغبات، ما دامت لازمة للبقاء، هي

مصدر دائم للفشل. الشجاعة البدنية وحب المعارك، على سبيل المثال، لا يساعدان كثيرًا الإنسان المتحضر – بل قد تكون عوائق. وفي حالة التوازن المادي والأمن والسلطة، لا يوجد مكان للقوة الفكرية والبدنية. أتصور أنه لسنوات لا تحصى لم يكن هناك أي خطر للحرب أو العنف الفردي، ولا يوجد خطر من الوحوش البرية، ولا أمراض مدمرة تتطلب بنية قوية، ولا حاجة للكدح. لمثل هذه الحياة، فإن ما يجب أن نطلق عليه الضعيف يكون مسلحًا بشكل جيد مثله مثل القوي، ولم يعد في الواقع ضعيفًا. إنهم بالفعل أفضل تهيئة، ذلك أن القوي تزعجه طاقته التي لا يجد لها متنفسًا. ومما لا شك فيه أن روعة جمال المباني التي رأيتها كانت نتاجًا لآخر عواصف طاقة البشر غير الهادفة الآن، قبل أن تستقر في وئام تام مع ظروف حياتهم؛ ازدهار هذا الانتصار الذي بدأ السلام النهائي العظيم. كان هذا دائمًا مصير الطاقة في ظل الأمن؛ تقود إلى الفن وإلى الشهوانية، ثم يأتي الضعف والتحلل».

«حتى هذا الزخم الفني سوف يفنى في نهاية المطاف، وقد فنى تقريبًا في الزمن الذي رأيته. إن تزيين أنفسهم بالزهور والرقص والغناء تحت ضوء الشمس، هذا ما بقي من الروح الفنية، وليس أكثر. وحتى هذا سوف يتلاشى في نهاية المطاف متحولًا إلى خمول قانع. إن حجر الرحى، ما بين الألم والضرورة، هو ما يُبقي على تحمسنا، ويبدو لي أن حجر الرحى البغيض قد تحطم أخيرًا هنا».

«تصورت وأنا أقفُ هناك في الظلام المنتشر أنني بهذا التفسير البسيط أمسكت بزمام مشكلة العالم، أمسكت بزمام السر الكامل لهؤلاء القوم اللطفاء. ربما الضوابط التي ابتكروها لتقليص الزيادة السكانية قد نجحت جيدًا، وتضاءلت أعدادهم بدلًا من أن تبقى ثابتة. وهذا قد يفسر وجود أطلال مهجورة. كان تفسيري شديد البساطة ومقبولًا بما يكفي، كما هو حال أغلب النظريات الخاطئة».

«عندما وقفت هناك متأملًا هذا الانتصار المثالي للإنسان، كان القمر المكتمل يبرز مائلًا بلونه الأصفر وسط فيض ضوء فضي من الشمال الشرقي. وأسفل التل، توقف القوم الصغار المشرقين عن التجول، ورفرفت بومة صامتة بجناحيها، وكنت أرتجف من برودة الليل. عقدت العزم على النزول والبحث عن مكان يمكنني النوم فيه».

«بحثت عن المبنى الذي شاهدته من قبل. ثم امتد بصري إلى تمثال أبي الهول الأبيض فوق قاعدة من البرونز، وتزايد وضوحه مع تزايد تألق ضوء القمر وهو يرتفع. تمكنت من رؤية البتولا الفضية في مواجهته. كانت هناك شجيرات نبات الوردية المتشابكة، سوداء في ضوء شاحب، وكان هناك المرج الصغير. نظرت إلى المرج مرة أخرى. استبد بي شك غريب أذهب عني الشعور بالطمأنينة. ‘كلا’، قلت لنفسي مؤكدًا، ‘هذا ليس المرج’».

«لكنه كان المرج. فوجه أبي الهول الأبيض الذي يبدو كمريض

الجذام كان تجاهه. هل يمكنكم أن تتخيلوا ما شعرت به عندما راودتني هذه الفكرة؟ كلا، لا يمكنكم. آلة الزمن اختفت!».

«تبادر إلى ذهني على الفور، كضربة سوط على وجهي، احتمال عدم قدرتي للعودة إلى زماني، أن أبقى عاجزًا في هذا العالم الجديد الغريب. أصابتني مجرد الفكرة بآلام بدنية فعلية، إذ شعرت أنها تقبض على حلقي وتحبس أنفاسي.

❊ ❊ ❊

الفصل السادس

ضياع آلة الزمن

«في لحظة أخرى، اكتنفني شعور بالخوف، وأخذت أركض بسرعة رهيبة، بخطوات قافزة أسفل المنحدر. في إحدى المرات وقعت على جبهتي، وجُرِح وجهي. لم أضيع الوقت في وقف نزيف الدم، لكنني قفزت واقفًا وواصلت الركض، رغم قطرات الدماء التي تنساب حارة أسفل خدي وذقني. وطوال ركضي كنت أقول لنفسي: «لقد حركوها قليلًا من مكانها، دفعوها إلى أسفل الشجيرات بعيدًا عن الطريق». ومع ذلك، ركضت بكل قوتي. وطوال الوقت، مع اليقين الذي يصاحب أحيانًا الرهبة المفرطة، كنت أعرف أن هذا التأكيد حماقة، عرفت غريزيًّا أنهم أبعدوا الآلة بعيدًا عن متناول يدي».

«كانت أنفاسي تخرج بألم. أعتقد أنني قطعت المسافة كلها، من قمة التل إلى المرج الصغير، ربما حوالي ميلين، في عشر دقائق. وأنا لست شابًا. كنت ألعن بصوت عال وأنا أركض من حماقتي الواثقة

بترك الآلة، مهدرًا تنفسي بهذه الطريقة. صرخت بصوت عال، ولم أتلقَّ إجابة. لا يبدو أن هناك أي مخلوق متحمس في هذا العالم الذي يضيئه القمر».

«وعندما وصلت إلى المرج، وجدت أن أسوأ مخاوفي قد تحقق. لا يوجد أي أثر للآلة يمكن رؤيته. شعرت بدوار وبرودة وأنا أقف أمام المساحة الفارغة بين الشجيرات السوداء المتشابكة. أخذت أركض خلالها بجنون، كما لو أن الآلة قد تكون مخبأة في أحد الأركان، ثم توقفت فجأة ويدي تقبض بإحكام على شعري. كان تمثال أبي الهول يرتفع عاليًا فوقي على قاعدته البرونزية، بلونه الأبيض، ولمعانه، وشحوبه تحت ضوء القمر الآخذ في الصعود. تراءى لي أن التمثال يبتسم في سخرية من جزعي».

«إن لم أكن متأكدًا من عدم كفاءة هؤلاء القوم الصغار البدنية والفكرية، ربما كنت لأواسي نفسي بتخيل أنهم قد احتفظوا لي بالآلة في مأوى ما. وهذا ما أفزعني: شعوري بوجود قوة ما غير متصورة في هذه اللحظة، أدى تدخلها إلى اختفاء اختراعي. على أن شيئًا واحدًا شعرت أنني متأكد منه: لا يمكن أن تنتقل الآلة عبر الزمن، ما لم تكن قد تم إنتاج نسخة مطابقة لها في عصر آخر. فطريقة ربط الروافع – سوف أريكم الطريقة لاحقًا– تمنع أي شخص من العبث بها على هذا النحو عند إزالة الربط. لقد تم نقلها، وإخفاؤها فقط في المكان. ولكن، إذنْ، أين يمكن أن توجد؟».

«أعتقد أنني أُصبت بنوبة هيجان. أتذكر أنني أخذت أركض بعنف حول وبين الشجيرات المحيطة بتمثال أبي الهول التي أضاءها نور القمر، وأخفت حيوانًا أبيض تصورت في الضوء الخافت أنه غزال صغير. أتذكر أيضًا، في فترة لاحقة تلك الليلة، أنني كنت أضرب الشجيرات بقبضات يدي حتى جُرحت مفاصل أصابعي ونزفت من جراء الأغصان المتكسرة».

«ثم هبطت نحو المبنى الحجري الضخم، وأنا أبكي وفي حالة من الهذيان من كروبي الذهنية. كانت القاعة الكبيرة مظلمة، وصامتة، ومهجورة. انزلقت على الأرض غير المستوية، وسقطت فوق أحد الموائد المصنوعة من أحجار الملاكيت التي كادت أن تكسر قصبة ساقي. أشعلت ثقابًا، ومشيت عبر الستائر المتربة التي حكيت لكم عنها».

«وهناك وجدت قاعة ثانية كبيرة مغطاة بالوسائد، كان ينام فوقها مجموعة من القوم الصغار. ليس لديَّ أدنى شك أنهم وجدوا ظهوري مرة ثانية غريبًا، حيث ظهرت لهم فجأة من جوف الظلام الساكن في ظل أصوات غير مفهومة وغمغمة ولهيب عود الثقاب. ذلك أنهم قد نسوا أعواد الثقاب. ‹أين آلة الزمن خاصتي؟› هكذا بدأت، وأنا أصيح كطفل غاضب، وأضع يديَّ عليهم وأهزهم معًا. من المؤكد أن سلوكي كان غريبًا جدًّا بالنسبة لهم. ضحك بعضهم، ونظر لي معظمهم بخوف شديد. وعندما رأيتهم يقفون حولي، خطر على بالي

أن محاولتي لإثارة شعورهم بالخوف كانت أكثر شيء أحمق يمكن القيام به في هذه الظروف. ولأسباب تتعلق بسلوكهم نهارًا، تصورت ضرورة نسيان هذا الخوف».

«وبصورة مفاجئة ألقيت عود الثقاب، وأسقطت في طريقي أحد هؤلاء القوم، ومضيت متخبطًا عبر قاعة الطعام مرة أخرى حتى خرجت إلى ضوء القمر. سمعت صرخات مرعوبة، ووقع أقدامهم الصغيرة وهم يركضون هنا وهناك ويتعثرون. لا أتذكر كل ما فعلته أثناء زحف القمر صاعدًا إلى السماء. أعتقد أنه كان عدم توقعي ضياع آلتي قد أصابني بالجنون. شعرت بيأس أنني انقطعت عن بني جنسي، كأنني حيوان غريب في عالم مجهول. من المؤكد أنني كنت أهذي مهتاجًا وأنا أركض جيئة وذهابًا، أصرخ وأبكي مصيري إلى الله. أتذكر شعوري بتعب رهيب، مع مضي تلك الليلة الطويلة اليائسة، والبحث هنا وهناك في هذا المكان المستحيل، والتماس الطريق بين الأنقاض المضاءة بضوء القمر، ولمس مخلوقات غريبة في الظلال السوداء؛ وأخيرًا، الاستلقاء على الأرض بالقرب من تمثال أبي الهول والبكاء بتعاسة شديدة، بل بغضب من حماقة ترك الآلة تختفي ومعها قوتي. لم يتبق لدي شيء سوى البؤس».

«نمت، وعندما استيقظت ثانية كان النهار قد اكتمل، ورأيت عصفورين يقفزان فوق العشب المجاور».

«جلست في ظل نضارة الصباح أحاول أن أتذكر كيف وصلت

هناك، ولماذا كان لدي هذا الشعور العميق بالهجران واليأس. ثم بدت الأمور واضحة في ذهني. ومع بزوغ ضوء النهار بقدر معقول، تمكنت من مواجهة الظروف التي ألمت بي. أدركت حماقتي الجامحة لنوبة الجنون التي انتابتني بين عشية وضحاها، وأخذت أفكر بتعقل».

«قلت لنفسي 'فلأفترض الأسوأ، أن الآلة فُقدت تمامًا، ربما دُمِرت. يتعين علي إذنْ أن أكون هادئًا وصبورًا، وأن أتعلم طريقة هؤلاء القوم، وأن أتوصل إلى فكرة واضحة عن كيفية فقدها ووسيلة الحصول على مواد وأدوات؛ بحيث ربما أتمكن في نهاية المطاف من صنع آلة أخرى. قد يكون هذا هو أملي الوحيد، أمل ضعيف، ربما، لكنه أفضل من اليأس. وقبل كل شيء، كان عالمًا جميلًا وغريبًا».

«'لكن، ربما فقط أخذوا الآلة. على أية حال يجب أن أكون هادئًا وصبورًا، وأعثر على المكان الذي تم إخفاؤها فيه، وأستعيدها بالقوة أو بالحيلة'. وعندئذ اندفعت أبحث حولي، متسائلًا أين يمكن أن أغتسل. شعرت بالإرهاق وتيبس العظام وقذارة السفر. وجعلتني نضارة الصباح أشعر برغبة في نضارة مماثلة. لقد استنفدت مشاعري. وفي الواقع، عندما أخذت أفكر فيما سأفعل، وجدت نفسي متعجبًا من الانفعال المفرط الذي انتابني بين عشية وضحاها».

«في ذلك الصباح قمتُ بفحص متأنٍّ للأرض المحيطة بالمرج الصغير. وأهدرت بعض الوقت في أسئلة عقيمة وجهتها لبعض هؤلاء القوم الصغار الذين كانوا يمرون. لم يتمكن أحد منهم من فهم

إشاراتي، كانت استجابة بعضهم متبلدة ببساطة؛ وأعتقد البعض الآخر أنها مزحة وضحكوا مني. كانت أصعب مهمة في العالم هي أن أبقي يديَّ بعيدًا عن صفع وجوههم الجميلة الضاحكة. كانت رغبة حمقاء، لكن الشيطان الذي يولده الخوف والغضب الأعمى كان كبحه عسيرًا، ولا يزال متلهفًا على اقتناص فرصة حيرتي. أعطتني الأرض العشبية نصيحة أفضل. فقد وجدت أخدودًا مشقوقًا فيها، حول منتصف المسافة بين قاعدة تمثال أبي الهول وآثار أقدامي في الموقع الذي جاهدت فيه لدى وصولي لرفع الآلة بعد انقلابها. كانت هناك علامات أخرى لإزالة جسم ثقيل وآثار أقدام غريبة وضيقة مثل تلك التي يمكن أن أتصور أنها آثار أقدام حيوان السلوث[٥]. وهو ما وجه انتباهي إلى قاعدة التمثال. أعتقد أنني قلت إنها كانت مصنوعة من البرونز. لم تكن مجرد كتلة حجرية، لكنها كانت مزينة تمامًا بلوحات ذات أُطر عميقة على الجانبين. توجهت نحوها، وطرقت عليها. إنها مجوفة. فحصت اللوحات بعناية، ووجدت أنها منفصلة عن الإطارات. لا توجد مقابض أو ثقوب لمفاتيح، وإنما ربما تُفتَح اللوحات من الداخل، إن كانت أبوابًا، كما افترضت. كان هناك شيء واحد واضحًا تمامًا في ذهني. لم يستغرق الأمر أي جهد عقلي كبير لأستنتج أن آلة الزمن موجودة داخل قاعدة التمثال. أمَّا عن كيف وصلت هناك، فهذه مشكلة مختلفة».

(٥) حيوان ثديي من الكسلانيات، وهو شديد البلادة، يعيش عادة على الأشجار ويتعلق على أغصانها بشكل مقلوب بواسطة مخالبه القوية، ويقتات على الحشرات والنباتات.

«رأيت رأسَيْ شخصين يرتديان ملابس برتقالية اللون قادمَين نحوي عبر الشجيرات، أسفل بعض أشجار التفاح المغطاة بالأزهار. التفت مبتسمًا لهم، ودعوتهما للحضور. جاءا، وبعد ذلك أشرت إلى قاعدة التمثال البرونزية في محاولة لإبلاغهما برغبتي في فتحها. لكن مع أول إشارة لي تجاهها، وجدتهما يتصرفان بغرابة شديدة. لا أعرف كيف أصف لكم تعبيراتهما. كان تعبيرهما كأنني استخدمت إيماءة صارخة غير لائقة لامرأة حساسة. رحلا كما لو أنهما تلقيا أسوأ إهانة ممكنة».

«بيد أنني كنت أريد الوصول إلى آلة الزمن؛ ولذلك حاولت القيام بنفس الشيء مع شاب صغير لطيف يرتدي ملابس بيضاء، لكنني حصلت على نفس النتيجة تمامًا. وعلى نحو ما، جعلتني طريقته أخجل من نفسي. ولكنني، كما قلت، أردت آلة الزمن. حاولت مع شخص آخر. وعندما استدار راحلًا مثل الآخرين، تملكني توتر شديد. لحقت به في ثلاث خطوات، وأمسكت بالجزء الفضفاض من عباءته الملتف حولة رقبته، وبدأت أسحبه تجاه أبي الهول. ثم رأيت الرعب والاشمئزاز على وجهة، وفجأة سمحت له بالذهاب».

«لكنني لم أنهزم بعد. طرقت بقبضة يدي على اللوحات البرونزية. ظننت أنني سمعت شيئًا يتحرك بالداخل -وبصراحة ظننت أنني سمعت صوتًا مثل الضحك المكتوم-، لكنني ربما كنت مخطئًا. ثم أحضرت حصاة كبيرة من النهر، وأخذت أطرق على قاعدة التمثال

حتى سحقت إحدى لفائف الزينة، وأُزيل الصدأ على شكل رقائق مسحوقة. من المؤكد أن هؤلاء القوم الصغار سمعوا صوت الدق الهادر على بعد ميل من الجانبين، لكن شيئًا لم يحدث. رأيت حشدًا منهم على المنحدرات، يختلسون النظر نحوي. وأخيرًا، بعد شعوري بالحر والتعب، جلست أشاهد المكان. لكن قلقي الشديد منعني من إطالة المشاهدة، هذا إلى جانب أن انتمائي الشديد إلى الغرب لم يتح لي التأمل لمدة طويلة. يمكنني أن أعمل على حل مشكلة لسنوات، ولكن الانتظار بخمول لمدة أربع وعشرين ساعة.. هذه مسألة أخرى».

«نهضت بعد فترة، وبدأت أمشي على غير هدى عبر الشجيرات نحو التل مرة أخرى».

«قلت لنفسي: ‘صبرًا. فإذا كنت تريد تشغيل الآلة مرة أخرى، يجب أن تترك أبا الهول هذا. فإذا كانوا قد تعمدوا أخذ آلتي، فليس من الجيد تدمير لوحاتهم البرونزية، وإذا لم يكونوا قد أخذوها، فسوف أحصل عليها ثانية بمجرد ما أتمكن من السؤال عنها. فالجلوس بين جميع تلك الأشياء المجهولة، أمام لغز مثل هذا، هو أمر ميؤوس منه. هنا يكمن الهوس بفكرة أحادية. يجب مواجهة هذا العالم. والتعرف على أساليبه، ومراقبته، والحذر من معاني التخمينات المتسرعة. ففي نهاية المطاف سوف أجد مفاتيح كل شيء’».

«ثم طرأت على ذهني فجأة فكاهة الحالة: فكرة السنوات التي أمضيتها في الدراسة والكد للوصول إلى الزمن المستقبلي، والآن

شغفي القلِق لمغادرته. لقد أوقعت نفسي في أكثر شرك تعقيدًا ويأسًا يمكن أن يبتكره إنسان على الإطلاق. وعلى الرغم من أنه كان مسئوليتي، فلا أستطيع مساعدة نفسي. ضحكت بصوت عال».

«مررت بالقصر الكبير، وبدا لي أن هؤلاء القوم الصغار يتجنبونني. ربما كان تصوري مجرد وهم، أو ربما كان يتعلق بطرقي على الأبواب البرونزية. على أية حال، كنت متأكدًا بدرجة كبيرة أنهم يتجنبونني. مع ذلك حرصت على عدم إبداء أي اهتمام، والامتناع عن السعي إلى أي منهم. وبعد يوم أو اثنين، عادت الأمور إلى سيرتها الأولى».

* * *

الفصل السابع

الحيوان الغريب

«حققت ما أمكنني من تقدم في اللغة، كما توسعت في جولاتي الاستكشافية هنا وهناك. ربما فاتني شيءٌ ما خفي في لغتهم أو هي لغة مفرطة في البساطة؛ فهي تتألف حصرًا تقريبًا من الأسماء والأفعال الملموسة، ويبدو أن الكلمات المجردة قليلة، إن وجدت، أو أن استخدام لغة البلاغة قليل. فالجُمل عادة بسيطة وتتكون من كلمتين، لكنني فشلت في نقل أو فهم أي من الجمل إلا أبسطها. قررت تأجيل تفكيري مؤقتًا في آلة الزمن وسر الأبواب البرونزية تحت أبي الهول، إلى أن تتنامى معرفتي وتقودني إليهم بطريقة طبيعية. على أن شعورًا بعينه، يمكنكم أن تفهموه، قد قيدني في حلقة تمتد بضعة أميال حول نقطة وصولي».

«بقدر ما تمكنت من المشاهدة، أظهر العالم كله نفس الثراء الغزير الذي أظهره وادي نهر التيمز. رأيت من فوق كل تل تسلقته نفس وفرة المباني الرائعة، وتنوعها اللانهائي من حيث المواد والنمط،

ونفس تجمعات الغابات دائمة الخُضرة، ونفس الأشجار المزهرة، وأشجار نبات السرخس. كانت المياه تلمع هنا وهناك مثل الفضة، وترتفع خلفها الأرض وهي تتلألأ زرقاء متموجة، وتتلاشى في صفاء السماء».

«الملمح المتفرد الذي جذب انتباهي حاليًا كان لبعض الآبار الدائرية التي بدت شديدة العُمق. وجدت إحداها خلال مساري إلى أعلى التل، المسار الذي اتبعته خلال أولى جولاتي. كانت حواف هذه الآبار ذات إطارات برونزية عجيبة الصنع، تحميها من المطر غالبًا قباب صغيرة. جلست إلى جانب البئر أنعم النظر داخله، لكنني لم أرَ أي بصيص من المياه، ولم أتمكن من التقاط أي انعكاس عندما أشعلت عود ثقاب. سمعت صوتًا غريبًا مضجِرًا؛ صوتًا مكتومًا يهدر ويهدر مثل ضربات الماكينات الكبيرة، واكتشفت من وهج عود الثقاب أن تيارًا منتظمًا من الهواء يسري في فتحة أسفل مهبط البئر».

«ألقيت قصاصة ورق بلا مبالاة في جوف البئر، وبدلًا من أن ترفرف ببطء إلى أسفل، تم امتصاصها على الفور وغابت بسرعة عن النظر. وبعد فترة، بدأت أربط أيضًا بين هذه الآبار وبعض الأبراج المرتفعة التي تتناثر على منحدرات التل. ففوق هذه الأبراج كان هناك ما يبدو غالبًا كوميض غريب من الهواء، يشبه ما يراه المرء في يوم حار فوق شاطئ ملتهب من حرارة الشمس».

«بالربط بين هذه الأشياء معًا، تصورت احتمال وجود نظام واسع

النطاق للتهوية تحت الأرض، على الرغم من صعوبة تخيُّل معناه الحقيقي. كنت أميل في البداية إلى ربطه بنظام الصرف الصحي لدى هؤلاء الناس. كان تصورًا بديهيًّا لهذه الأشياء، لكنه خاطئ تمامًا».

«وهنا يجب أن أعترف أنني لا أعرف سوى القليل جدًّا عن مياه المصارف، والأجراس، ووسائط النقل ووسائل الراحة خلال فترة وجودي في هذا المستقبل الحقيقي. قرأت في بعض رؤى اليوتوبيا الخيالية والأزمان المستقبلية كمية هائلة من التفاصيل حول تشييد المباني والترتيبات الاجتماعية وما إلى ذلك. ولكن، بينما تسهل تمامًا معرفة هذه التفاصيل عندما يقع العالم كله في مخيلة المرء، تتعذر معرفتها تمامًا بالنسبة لمسافر فعلي وسط هذه الحقائق كالتي أحاطت بي. تصوروا القصة التي يمكن أن يعود بها رجل أسود عن لندن ويحكيها لقبيلته في أفريقيا الوسطى. ماذا يعرف عن شركات السكك الحديدية، والحركات الاجتماعية، وأسلاك الهاتف والتلغراف، وشركة توصيل الطرود، والحوالات البريدية؟ مع ذلك، سنكون على الأقل مستعدين لشرح هذه الأشياء. وحتى بالنسبة إلى ما تعرّف عليه، كيف يستطيع إقناع صديقة الذي لم يسافر هناك بما قاله؟ ثم فكروا في مدى ضيق الفجوة بين زنجي ورجل من عصرنا، ومدى اتساع الفاصل الزمني بيني وبين أناس العصر الذهبي. لقد كنت حساسًا تجاه الكثير من الأشياء غير المرئية، مما أسهم في شعوري بالراحة. على أنني أخشى ألا أتمكن سوى من نقل القليل جدًّا من تلك الاختلافات إلى

أذهانكم، ما عدا الانطباع العام حول التنظيم التلقائي».

«ولنأخذ مسألة المدافن مثلًا. لم أشهد أي أثر لمحارق الجثث أو أي شيء يوحي بالمقابر. وإنما طرأ لي أنها ربما توجد في بقعة ما خارج نطاق استكشافاتي. وهذا -مرة أخرى- سؤال طرحته على نفسي عمدًا، لكن فضولي عجز تمامًا في البداية عن التوصل لأي شيء. فلم يكن بين هؤلاء القوم أي عجوز أو عاجز».

«يجب أن أعترف أن شعوري بالارتياح لنظرياتي الأولى حول الحضارة التلقائية والبشرية المتدهورة لم يستمر. ومع ذلك لم أستطع التفكير في شيء آخر. دعوني أحدد الصعوبات التي واجهتني. القصور الكبيرة العديدة التي استكشفتها كانت مجرد أماكن للمعيشة، وقاعات كبرى للطعام، وشقق للنوم. لم أجد أي آلات أو أجهزة من أي نوع. ومع ذلك كان هؤلاء القوم يرتدون ملابس من أقمشة جذابة تحتاج قطعًا إلى تجديد في بعض الأحيان؛ والصنادل التي يرتدونها على الرغم من خلوها من الزخرفة، كانت عينات معقدة إلى حد ما من المشغولات المعدنية. لقد صُنعت هذه الأشياء على نحو ما، مع أن هؤلاء القوم الصغار لم يُظهِروا أي آثار لتوجهات عصرنا الإبداعية. لا توجد متاجر، ولا ورش عمل، ولا أي دلائل على واردات من أي جزء آخر من الأرض. كانوا يقضون كل وقتهم في اللعب اللطيف، والاستحمام في النهر، وممارسة الحب بطريقة مرحة، وأكل الفاكهة، والنوم. لم أتمكن من معرفة كيف تستمر الحياة».

«ثم مرة أخرى، آلة الزمن. لقد نقلها شيء، لا أعرف ما هو، إلى قاعدة تمثال أبي الهول المجوفة. لماذا؟ لم أستطع أن أتصور السبب أبدًا».

«وهناك تلك الآبار الخالية من الماء، وتلك الأعمدة الوامضة. شعرت أن مفتاح اللغز فاتني في مكان ما. شعرت ... كيف يمكنني أن أقول ذلك؟ افترضوا أنكم وجدتم كتابة منقوشة لبعض الجمل هنا وهناك بلغة إنجليزية ممتازة، تتداخل معها جمل أخرى تتكون من كلمات، أو حتى من حروف، غير معروفة لكم على الإطلاق. هذا كيف قدم لي عالم ٨٠٢٧٠١ نفسه في اليوم الثالث من وجودي».

«في ذلك اليوم، أيضًا، أقمت صداقة من نوع ما. فعندما كنت أشاهد بعض القوم الصغار يستحمون في موقع ضحل من النهر، أُصيبت فتاة بتشنج عضلي، وبدأ التيار يجرفها إلى أسفل، حيث كان سريعًا في هذه البقعة، وإن لم يكن سريعًا جدًّا بالنسبة حتى لسباح متوسط. وهذا يعطيكم فكرة عن أفكار هؤلاء القوم الغريبة، عندما أقول لكم إنَّ أحدًا منهم لم يبذل أدنى محاولة لإنقاذ هذه المخلوقة الصغيرة الضعيفة الباكية التي كانت تغرق أمام أعينهم».

«عندما أدركت ذلك، خلعت ملابسي على الفور، وخضت الماء من نقطة منخفضة، وأمسكت بهذه الروح الصغيرة الضعيفة، وأخرجتها من الماء».

«سرعان ما استردت عافيتها بعد أن فركت أطرافها قليلًا، وشعرت

بالرضا عندما رأيتها في حالة جيدة قبل أن أتركها. كان تقديري لهؤلاء القوم الصغار قد انخفض، وبالتالي لم أتوقع أي امتنان. بيد أنني كنت مخطئًا».

«وقع الحادث في الصباح. وفي فترة ما بعد الظهر قابلت امرأتي الصغيرة، كما تصورتها، في طريق عودتي من إحدى جولاتي الاستكشافية وفي اتجاهي نحو موقعي الأساسي. استقبلتني بصيحات بهجة، وقدمت لي إكليلًا كبيرًا من الزهور، كان واضحًا أنه مُعد خصيصًا من أجلي».

«ذهب تصرفها بخيالي. ربما لأنني أشعر بالهجر. على أية حال بذلت قصارى جهدي لأُظهر مدى تقديري للهدية».

«وبعد وقت قصير كنا نجلس معًا في تعريشة حجرية صغيرة، ونتبادل محادثة عبارة عن ابتسامات أساسًا».

«تأثرت بلطف المخلوقة الصغيرة كما يتأثر الطفل. تبادلنا الزهور وقبلت يدي. وفعلت الشيء نفسه لها. ثم حاولت التحدث معها. اكتشفت أن اسمها وينا، وبدا لي اسمًا مناسبًا على نحو ما، على الرغم من أني لا أعرف معناه. كانت هذه بداية صداقة غريبة استمرت أسبوعًا في مجملها وانتهت، كما سوف أحكي لكم».

«كانت كطفل تمامًا، تريد أن تبقى معي دائمًا. حاولت أن تتبعني في كل مكان، وكان ثقيلًا على قلبي أن أرهقها في استكشافي القادم وأتركها في النهاية مستنفدة، تناديني بنبرة حزينة بالأحرى. لكنني

يجب أن أتغلب على مشاكل هذا العالم. قلت لنفسي أنا لم آتِ إلى المستقبل لمغازلة امرأة مُصغرة. لكن حزنها كان شديدًا عندما تركتها، واحتجاجاتها على الفراق كانت محمومة في بعض الأحيان. وبقدر متاعبي الكثيرة في مجملها، بقدر ما شعرت بالراحة من مودتها. وحتى الآن كانت، إلى حد ما، راحة كبيرة جدًّا».

«فكرت أن مجرد عاطفة صبيانية هي التي جعلتها تتشبث بي. لم أعرف بوضوح حتى وقت متأخر جدًّا، ما عانته نتيجة لتركي لها. كما أنني لم أدرك بوضوح، حتى وقت متأخر جدًّا أيضًا، ماذا كانت بالنسبة لي. فهذه المخلوقة التي على شكل دمية صغيرة، بمجرد ولعها وإظهار اهتمامها بي بطريقتها العقيمة الضعيفة، أعطت حاليًا لعودتي إلى منطقة أبي الهول الأبيض، شعورًا يماثل تقريبًا العودة إلى الوطن. وسوف أشاهد شخصها الصغير بلونيها الأبيض والذهبي عندما آتي إلى التل».

«تعلمت منها أيضًا أن الخوف لم يترك برمته العالم. لم تكن خائفة على الإطلاق في النهار، وكانت لديها ثقة غريبة تجاهي. ففي إحدى المرات، في لحظة حماقة، تجهمت بشكل تهديدي في وجهها، لكنها ضحكت ببساطة. كانت تفزع من الظلام، ومن الظلال، ومن الأشياء السوداء. كان الظلام بالنسبة لها هو الشيء المخيف. وكان هذا الفزع بمثابة عاطفة متفردة، جعلتني أفكر وأرقب. اكتشفت بعد ذلك، من بين أمور أخرى، أن هؤلاء القوم الصغار يتجمعون في منازل كبيرة بعد

حلول الظلام، وينام عدد منهم في نفس المكان، وأن الدخول عليهم في الظلام يعني إصابتهم باضطراب من جراء الخوف. لم أجد أبدًا أيًّا منهم خارج البيت أو نائمًا بمفرده داخل البيت بعد حلول الظلام».

«مع ذلك، ما زلت هذا الأبله، الذي فاته الدرس المستفاد من هذا الخوف. فعلى الرغم من حزن وينا الواضح، كنت مُصرًّا على النوم بعيدًا عن هذه الأكوام البشرية النائمة. أزعجها ذلك إلى حد كبير، ولكن عادة ما تنتصر عاطفتها الغريبة تجاهي، ولمدة خمس ليالٍ من تعارفنا، بما في ذلك في الليلة الماضية، نامت ورأسها بجوار رأسي. لكن قصتي تتوارى بعيدًا عني عندما أتكلم عنها».

«لا بد أنها كانت الليلة السابقة على إنقاذ وينا هي التي استيقظت فيها حوالي الفجر. كنتُ قلقًا، أحلم حلمًا مزعجًا أنني غرقتُ، وأن شقائق النعمان البحرية تتحسس وجهي بمجساتها الناعمة. استيقظت مفزوعًا، مع تخيل غريب أن حيوانًا رمادي اللون قد خرج لتوه من الغرفة التي كنت أنام فيها».

«حاولت النوم مرة أخرى، لكني شعرت بقلق وعدم راحة. لقد كانت تلك هي الفترة الرمادية القاتمة التي تزحف عندها الأشياء خارجة من الظلام، عندما يصبح كل شيء بلا لون وشديد الوضوح ومع ذلك غير حقيقي. نهضت ونزلت إلى القاعة الكبيرة وخرجت إلى البلاط المرصوف أمام القصر. فكرت أن أغتنم الفرصة وأشهد شروق الشمس».

«كان القمر يغرب، وضوؤه المحتضر يختلط بأول ضوء شاحب للفجر مشكلين معًا غسقًا شبحيًّا. وكانت الشجيرات مكتسية بلون أسود حبري، والأرض رمادية داكنة، والسماء عديمة اللون وكئيبة. وفي أعلى منحدر التل، ظننت أنني رأيت أشباحًا. تخليت لثلاث مرات، خلال تفحصي المنحدر، رؤية أشكال بيضاء. وتخيلت مرتين رؤية مخلوق أبيض منعزل يشبه القرد، يركض بسرعة نحو أعلى التل. ورأيت مرة، بالقرب من الأنقاض، اثنين يحملان جسمًا ما قاتمًا، ويتحركان على عجل. لم أتمكن من رؤية ماذا بقى منهم. يبدو أنهم اختفوا بين الشجيرات».

«كان الفجر لا يزال باهتًا، يجب أن تفهموا ذلك. كنت أشعر ببرودة الصباح المبكر الملتبس الذي ربما جربتموه. تشككت في عيني. فالسماء الشرقية كانت أكثر إشراقًا، حيث تزايد ضوء النهار، وعادت الألوان الزاهية إلى العالم مرة أخرى. تفحصت المشهد بعناية، لكنني لم أبصر ما يؤكد الأجسام البيضاء. كانت مجرد مخلوقات من الضوء الرمادي الخافت».

«قلت لنفسي: لابد أنها أشباح، تُرى إلى أيِّ عصر يعود تاريخها؟».

«تذكرت مستمتعًا فكرة جرانت ألن العجيبة؛ فهو يقول إذا مات كل جيل وترك أشباحًا، سيصبح العالم في نهاية المطاف مكتظًا بهم. وبناء على هذه النظرية، ربما أصبح عددهم مهولًا خلال ٨٠٠ ألف سنة من الآن، وبالتالي لا عجب أن أرى أربعة مرة واحدة. لكن الدعابة

لم تخفف عني، وبقيت أفكر في هذه الأشكال طوال الصباح حتى أبعد إنقاذ وينا هذا الموضوع من رأسي. لقد قمت بالربط بينهم، بطريقة غير محددة، بالحيوان الأبيض الذي أذهلني خلال بداية بحثي الملهوف عن آلة الزمن. لكن وينا كانت بديلًا لطيفًا عن هذا الموضوع».

«كان مُقدرًا أن تعود هذه الأشكال الشبحية لتستحوذ على ذهني بطريقة أكثر قوة. أعتقد أنني حكيت لكم عن شدة حرارة الطقس في هذا الزمن المستقبلي، أكثر حرارة من الطقس في زماننا. لا يمكنني تحديد السبب. ربما كانت الشمس أكثر حرارة، أو ربما أصبحت الأرض أقرب إلى الشمس. اعتدنا أن نفترض أن الشمس سوف تبرد باطراد في المستقبل، لكن من لا يعرفون مثل هذه التكهنات -مثل الناس في فترة شباب داروين- ينسون أن الكواكب يجب أن تعود في نهاية المطاف واحدة تلو الأخرى إلى الكيان الأم. ومع حدوث هذه الكوارث، سوف يزداد توهج الشمس مرة أخرة مع الطاقة المتجددة. ربما عانى أحد الكواكب الداخلية من هذا المصير. أيًّا كان السبب، تظل الحقيقة أن الشمس أكثر سخونة كثيرًا مما عليه الآن».

«كان صباح يوم شديد الحرارة، صباح يومي الرابع، كما أعتقد، عندما وقع ذلك الحادث اللافت للنظر خلال بحثي عن ملاذ من الحرارة والتوهج بين الأنقاض الضخمة بالقرب من البيت الكبير الذي أحتمي به. فبينما كنت أتسلَّق جاهدًا بين أكوام هذه المباني، وجدت رواقًا طويلًا ضيقًا، نوافذه النهائية والجانبية مسدودة بفعل الكتل الحجرية

التي سقطت من المبنى والتي كانت تبدو في البداية، على عكس التألق الخارجي، مظلمة يصعب اختراقها».

«دخلت متلمسًا الطريق، فالتغيير من الضوء إلى السواد جعل بقع اللون تسبح أمامي. توقفت فجأة مذهولًا. هناك زوج من العيون، يضيؤها انعكاس ضوء النهار، يرقبني من وسط الظلام!».

«استبد بي خوفي الغريزي القديم من الحيوانات البرية. أحكمت قبضة يدي، ونظرت بثبات إلى مقلتي العينين الساطعتين. خشيت أن أستدير. ثم خطرت ببالي فكرة الأمن المطلق الذي بدت البشرية تعيشه. ثم تذكرت تلك الرهبة الغريبة من الظلام».

«تغلبت على خوفي إلى حد ما، وتقدمت خطوة، وتكلمت. أعترف أن صوتي كان أجشًا، ولم أتمكن من السيطرة عليه بشكل جيد. وضعت يدي ولمست شيئًا ناعمًا».

«وعلى الفور تحركت العينان بسرعة جانبًا، وركض شيء أبيض مارًّا بي. استدرت وأنا في شدة العصبية، ورأيت جسدًا عجيبًا يشبه القرد، ورأسه منحنية بطريقة غريبة، يركض عبر المساحة المضاءة بنور الشمس خلفي. اصطدم بكتلة من الجرانيت، ترنح جانبًا، وفي لحظة اختبأ في ظل أسود تحت كومة أخرى من أنقاض المبنى».

«لم أستطع تكوين انطباع مكتمل عنه بالطبع. كان لونه أبيض باهتًا، وعيونه غريبة وكبيرة وتميل إلى اللون الأحمر الرمادي، ويوجد بعض الشَّعر الذي يُشبه الكتان على رأسه وأسفل ظهره. لكنه، كما

قلت، ركض بسرعة كبيرة لم تتح لي رؤيته بوضوح. لا أستطع حتى القول ما إذا كان ركض على أربع، أم فقط وساعداه منخفضين».

«بعد لحظة من التردد، تابعت المخلوق في الكومة الثانية من الأنقاض. لم أتمكن من العثور عليه هناك في البداية، لكنني بعد فترة وفي ظل الظلام الدامس، وصلت إلى إحدى تلك الفتحات الشبيهة بالبئر، التي حكيت لكم عنها، وكانت نصف مغلقة بعمود سقط عليها. ثم واتتني فكرة مفاجئة. هل اختفت الآلة أسفل هذا المهبط؟ أشعلت ثقابًا، ونظرت إلى أسفل فرأيت هيئة بيضاء صغيرة تتحرك، ذات عينين كبيرتين لامعتين تنظران نحوي في ثبات خلال تراجعها».

«هذا الشيء جعلني أرتجف؛ فهو يشبه عنكبوتًا بشريًّا، يتحرك أسفل جدار المهبط، والآن لاحظت للمرة الأولى عددًا من البروزات المعدنية التي يمكن استخدامها بالقدم واليد، وتشكل نوعًا من السلم إلى أسفل».

«وفجأة أحرقت نار عود الثقاب أصابعي وسقط من يدي، وانطفأ؛ وعندما أشعلت عود ثقاب آخر، كان الوحش الصغير قد اختفى».

«لا أعرف كم من الوقت مر وأنا جالس أنعم النظر أسفل البئر العجيب. وببطء شديد أقنعت نفسي أن الشيء الذي رأيته كان رجلًا. لكن الحقيقة الفعلية تجلت أمامي تدريجيًّا؛ أن الإنسان لم يبق كنوع واحد، وإنما أصبح نوعين متمايزين من الحيوانات؛ وأن أطفالي اللطفاء في العالم العلوي ليسوا الأحفاد الوحيدين للبشر في جيلي،

بل إن هذا الشيء الأبيض الليلي الذي انطلق سريعًا أمامي هو أيضًا وريث لعصرنا».

«فكرت في الأعمدة الوامضة، وفي نظريتي حول التهوية تحت الأرض. وبدأت أتشكك في مغزاها الحقيقي».

«ولكن، ماذا يفعل هذا المخلوق في منظومتي المتوازنة تمامًا؟ كيف يرتبط بالصفاء الكسول لهؤلاء القوم اللطفاء في العالم العلوي؟ وما الذي يختفي أسفل هناك؟ جلست على حافة البئر وأنا أقول نفسي لا يوجد ما أخشاه إذا نزلت، وهناك يجب أن أبحث عن حل لصعوباتي، ومع ذلك شعرت بالخوف من الهبوط إلى أسفل».

«وخلال ترددي، جاء اثنان من لطفاء العالم العلوي الجميل يركضان من الضوء إلى الظل متحابين. كان يتبعها ويُلقي إليها الزهور وهو يركض. بدا عليهما الإحباط عندما وجدوني وذراعي على العمود المنقلب، منعمًا النظر أسفل البئر. وعلى ما يبدو أن مشاهدة تلك الفتحات كانت شيئًا سيئًا، ذلك أنني عندما أشرت إلى الفتحات وحاولت توجيه سؤال حولها بلغتهم، بدا عليهما الأسى، واستدارا بعيدًا. بيد أنهما اهتما بأعواد الثقاب، فأشعلت عددًا منها لتسليتهما».

«ومع ذلك، فشلت جميع محاولاتي للفت انتباههما تجاه الموضوع الذي أريده؛ وتركتهما وقتها. وعقدت العزم على العودة إلى وينا، لأرى ما يمكنني أن أحصل عليه منها».

«لكن عقلي كان بالفعل في حالة ثورة، تخميناتي وانطباعاتي

تختلف وتتجه نحو تعديلات جديدة. لدي الآن مفتاح هذه الآبار، وأبراج التهوية، ومشكلة الأشباح، وإشارة بالفعل إلى معنى البوابات البرونزية ومصير آلة الزمن. وكان لدي أيضًا، بشكل مبهم في الواقع، تصور للمشكلة الاقتصادية التي حيرتني».

«وها هي وجهة نظري الجديدة: من الواضح أن هذا النوع الثاني من البشر كان يعيش تحت الأرض. هناك ثلاثة ظروف خاصة هي التي جعلتني أفكر في أن ظهوره النادر على السطح جاء نتيجة لفترة طويلة من السُّكنى تحت الأرض؛ أولاً، اللون الأبيض الشائع في معظم الحيوانات التي تعيش في الظلام إلى حد كبير- السمك الأبيض في كهوف ولاية كنتاكي، على سبيل المثال. ثم العيون الكبيرة وقدرتها على أن تعكس الضوء- سمة مشتركة للعيون الليلية، ويشهد على ذلك البوم والقطط. وأخيرًا الارتباك الواضح في ضوء الشمس، والحركة السريعة تجاه الظلال القاتمة، وطريقة حمل الرأس أثناء الوجود في الضوء، مما عزز فكرة شدة حساسية شبكية العين».

«إذنْ من المؤكد أن الأرض تحت قدمي مليئة بالأنفاق إلى حد هائل، حيث يعيش الجنس الجديد في هذه الكهوف. كما أن وجود مهابط وآبار التهوية على طول سفوح التلال -في كل مكان، في الواقع، ما عدا على طول وادي النهر- يوضح مدى اتساع تشعبات العالم السفلي».

«ومن الطبيعي أن أفترض أن أداء الأعمال الضرورية للعالم العلوي

كان يتم في العالم السفلي؛ وهو تصور معقول إلى حد أنني قبلته دون تردد. ومن هنا وصلت إلى افتراض حول كيفية حدوث تقسيم الجنس البشري. وأجرؤ على القول إنكم سوف تتوقعون الشكل الذي اتخذته نظريتي، رغم أنني سرعان ما شعرت أنها لا تزال تقصر عن حقيقة الحالة».

«لكن في البداية، وانطلاقًا من مشاكل عصرنا، كان يبدو واضحًا أمامي كضوء النهار أن مفتاح تفسير اللغز هو أن الاتساع التدريجي للحاضر ليس سوى اختلاف مؤقت واجتماعي بين الرأسمالي والعامل. ومما لا شك فيه أنه سوف يبدو لكم شديد البشاعة ولا يمكن تصديقه، ولكن حتى الآن هناك ظروف تشير إلى الطريق الذي سارت فيه الأشياء. هناك ميل واضح بجلاء لاستخدام فضاء تحت الأرض للأغراض الأقل زينة من الحضارة؛ فهناك خط السكة الحديد الميتروبوليتاني في لندن، على سبيل المثال، وكل تلك السكك الحديدية الكهربائية الجديدة؛ وهناك الأنفاق، وورش العمل والمطاعم تحت الأرض وهكذا دواليك. ومن الواضح، كما فكرت، أن هذا التوجه قد تزايد حتى فقدت الصناعة تدريجيًّا مشهد اليوم، حيث تزايدت المصانع تحت الأرض بدرجة هائلة، وأصبح العمال يقضون قدرًا متزايدًا من وقتهم فيها. بل الآن حتى، يعيش عمال الطرف الشرقي في ظل مثل هذه الظروف الاصطناعية، ويصبحون عمليًّا معزولين تمامًا عن سطح الأرض الطبيعي والسماء الصافية».

«ثم مرة أخرى، هناك الميل الحصري لدى الأثرياء، الذي يرجع دون شك إلى ارتفاع مستوى تعليمهم، كما أن اتساع الهوة بينهم وبين عنف الفقراء الفظ يؤدي بالفعل إلى إغلاق أجزاء كبيرة من مساحة البلد على السطح ضدهم. ففي لندن، على سبيل المثال، ربما نصف أجمل مناطق البلد مغلق أمام تطفلهم. ونفس الهوة الآخذة في الاتساع، نظرًا لطول ونفقات عملية التعليم العالي وزيادة المرافق والإغراءات لتشكيل عادات رفيعة بين الأغنياء، سوف تُقلص من تكرار التبادلات بين الطبقة والأخرى، أي الارتقاء والتزاوج بين الطبقات الذي يؤخر حاليًا تقسيم جنسنا البشري على طول خطوط التقسيم الطبقي الاجتماعي».

«لذا، في نهاية المطاف، سيوجد لدينا فوق الأرض من يملكون، الذين يسعون إلى الصحة والراحة والجمال، وسيوجد تحت الأرض من لا يملكون؛ أي العمال، الذين يتكيفون باستمرار مع عملهم. وبلا شك، بمجرد وجودهم تحت الأرض، سيتحملون سداد إيجارات كبيرة لتهوية كهوفهم. أما العمال الذين يضربون عن العمل، فسوف يموتون جوعًا أو تخنقهم المتأخرات المستحقة من إيجارات التهوية؛ لكن العمال الذين اعتادوا البؤس والتمرد، فسوف يموتون. وفي النهاية، إذا أصبح التوازن دائمًا، سوف يتكيف من تبقى على قيد الحياة مع ظروف حياتهم تحت الأرض، كما يتكيف من يعيشون فوق الأرض مع حياتهم، ويسعدون بطريقة عيشهم. يبدو لي أن الجمال

الرفيع للعالم العلوي، والشحوب والذبول للعالم السفلي، هو الناتج الطبيعي تمامًا».

«الانتصار العظيم الذي حلمت به البشرية، اتخذ الآن شكلًا مختلفًا في ذهني. لم يكن انتصارًا لتوفير التعليم للجميع والتعاون العام، مثلما تخيلت في البداية. بل رأيت بالأحرى أرستقراطية حقيقية، مسلحة بعلوم متكاملة ووصل تطورها إلى نهايته المنطقية وهو النظام الصناعي اليوم. لم يكن انتصار عالم البشرية العلوي مجرد انتصار ببساطة على الطبيعة، وإنما كان انتصارًا على الطبيعة وعلى البشر الآخرين».

«يجب أن أحذركم أن هذه كان نظريتي في ذلك الوقت. لم يكن لدي دليل إرشادي ملائم على شاكلة الكتب الطوباوية. قد يكون تفسيري خاطئًا تمامًا؛ على أنني ما زلت أعتقد أنه الأكثر قبولًا. ولكن حتى في هذا ظل هذا الافتراض، فلابد أن فترة طويلة مرت منذ أن وصلت حضارة التوازن التي تحققت أخيرًا إلى ذروتها، والآن قطعت شوطًا طويلًا على طريق الاضمحلال. إن الأمن شديد المثالية في العالم العلوي قد أدى بهؤلاء إلى حركة تفسخ بطيئة في النهاية إلى تضاؤل عام في الحجم، والقوة، والذكاء. لقد رأيت ذلك فعلًا بوضوح تام، ولكن ما حدث للعالم السفلي لم أخمنه بعد. على أنه مما رأيته من المورلوك –وهو بالمناسبة الاسم الذي تُسمى به هذه المخلوقات– يمكنني أن أتخيل تغييرًا في النوع البشري بين الإيلوي –وهو النوع الجميل الذي تعرفت عليه بالفعل– أعمق بكثير في العالم السفلي».

«ثم انتابتني بعض الشكوك المزعجة. لماذا أخذ المورلوك آلة الزمن؟ ذلك أنني شعرت أن هؤلاء القوم في العالم السفلي قد أخذوها بالتأكيد. لماذا أيضًا، إذا كان الإيلوي هم السادة، لا يمكنهم استعادة الجهاز لي؟ ولماذا يخافون من الظلام؟».

«كنت مصممًا، كما قلت، أن أسأل وينا عن هذا العالم السفلي، ولكن هنا مرة أخرى أصابتني خيبة أمل. لم تفهم أسئلتي في البداية، ثم رفضت الإجابة. ارتعدت كما لو أن الموضوع لا يُطاق. وعندما ضغطت عليها، ربما ببعض القسوة، انفجرت باكية».

«هذه كانت الدموع الوحيدة التي رأيتها في هذه العصر المستقبلي، باستثناء دموعي. عندما رأيت دموعها، توقفت على نحو غير متوقع عن القلق بشأن المورلوك، اقتصر انشغالي على إزالة هذه العلامات من إرثها البشري من عينيها مرة أخرى. والآن، ها هي تبتسم وتصفق بيديها بينما أشعل عود ثقاب للاحتفال».

* * *

الفصل الثامن

المورلوك

«قد يبدو لكم الأمر غريبًا، ولكن مر يومان قبل أن أتمكن من متابعة مفتاح لغز المورلوك بالطريقة التي تبين أنها مناسبة، وهي النزول إلى البئر. شعرت بخوف غريب من أجسادهم الشاحبة. كان لونهم يشبه اللون الأبيض لدى الديدان والأشياء التي يراها المرء محنطة في متحف علوم الحيوان. وكان ملمسهم باردًا. ربما كان خوفي يرجع بدرجة كبيرة إلى تأثير التعاطف عند الإيلوي، الذين بدأت الآن أفهم اشمئزازهم من المورلوك».

«لم أنم جيدًا في الليلة التالية. ربما اضطربت صحتي قليلًا. كان الشك والحيرة يرهقانني. انتابني شعور، مرة أو مرتين، بالخوف الشديد الذي لم أدرك له أي سبب محدد. أتذكرني متسللًا دون ضجة إلى قاعة كبيرة حيث ينام القوم الصغار في ضوء القمر –في تلك الليلة كانت وينا بينهم– وشعوري بالاطمئنان لوجودهم. خطر لي حتى في ذلك الحين أنه في سياق بضعة أيام عندما مر القمر خلال نهاية طرف القاعة

وأصبحت الليالي مظلمة، ربما أصبح ظهور هذه المخلوقات غير السارة من أسفل، هذه الليمورات[٦] شاحبة البياض، هذه الحشرات الجديدة التي حلت محل القديمة، أكثر وفرة».

في تلك الأيام ساورني شعور التوتر الذي يصيب من يتهرب من واجب حتمي. كنت موقنًا أنني لن أسترد آلة الزمن إلا بجرأة اختراق هذه الأسرار تحت الأرضية. بيد أنني لم أستطع مواجهة الأمر، الذي ربما اختلف لو كان بصحبتي رفيق. على أنني كنت في حالة وحدة فظيعة، وحتى الهبوط إلى أسفل في الظلام كان يفزعني أيضًا».

«لا أعرف إذا كنتم ستتفهمون شعوري، لكنني لم أشعر أبدًا بأن ظهري آمن».

«ربما كان هذا الشعور بالتوتر هو الذي دفعني أبعد مما كنت قد ذهبت حتى الآن في جولاتي الاستكشافية. توجهت إلى الجنوب الغربي، نحو البلدة الناشئة التي تُسمى الآن كومب وود، ولاحظت بعيدًا، في اتجاه مدينة بانستيد بالقرن التاسع عشر، كومة خضراء شاسعة، ذات طبيعة مختلفة عن أي شيء رأيته حتى الآن. كانت أكبر حتى من أكبر القصور أو الأنقاض التي عرفتها، وبدت الواجهة لي شرقية الطابع؛ لامعة، فضلًا عن مسحة من اللون الأخضر الشاحب، نوع من الأخضر المزرق، من نوع معين من الخزف الصيني. دل اختلاف

(٦) الليمور هو حيوان من فئة الثدييات، وهو نوع من أنواع القرود، اسمه مشتق من الأساطير الرومانية القديمة ويعني الأشباح أو الأرواح، وموطنه الأصلي جزيرة مدغشقر. المترجمة.

مظهر البناء على اختلاف الاستخدام. فكرت أن أواصل واستكشفه. لكن الوقت قد تأخر إلى جانب أنني وصلت إلى هذا المكان بعد دورة طويلة ومتعبة. عقدت العزم على تأجيل هذا الفحص إلى اليوم التالي، وعندما عدت استقبلتني وينا الصغيرة بالترحاب والمداعبات».

«لكنني في صباح اليوم التالي شعرت بالندم لترددي في نزول البئر ومواجهة المورلوك في كهوفهم. أدركت أن فضولي تجاه تلك الكومة الكبيرة من الخزف الأخضر كان مجرد خداع للنفس للتنصل من تجربة أفزعتني ليوم آخر. عقدت العزم على النزول دون المزيد من إضاعة الوقت، وبدأت في الصباح الباكر متجهًا نحو بئر قرب أنقاض من الجرانيت والألومنيوم».

«ركضت وينا الصغيرة بجانبي. تبعتني إلى البئر راقصة، لكنها عندما شاهدتني أميل عند فوهتها وأنظر إلى الأسفل، بدت مرتبكة بشكل غريب».

«قلت لها: 'وداعًا وينا الصغيرة'، وقبّلتها، وبعد أن هدأت روعها بدأت أتحسس حافة البئر بحثًا عن خطافات للتسلق، كنت أبحث في عجل، فقد خشيت أن تخونني شجاعتي».

«في البداية كانت وينا تراقبني في ذهول، ثم أطلقت صرخة بائسة، وركضت نحوي وبدأت تشدني بيديها الصغيرتين. أعتقد أن معارضتها أصابتني بتوتر. هززتها بعيدًا عني، ربما ببعض الخشونة، وفي لحظة أخرى كنت في جوف البئر».

«رأيت وجهها المكروب عبر الحافة، وابتسمت لأطمئنها، ثم نظرت إلى أسفل نحو الخطافات غير المستقرة التي تشبثت بها».

«كان يجب أن أهبط عبر المهبط ربما لمائتي ياردة. تمكنت من الهبوط عن طريق قضبان معدنية تبرز من جانبي البئر، ونظرًا لأنها كانت مُعدة لتناسب احتياجات مخلوق أصغر حجمًا وأخف وزنًا مني، سرعان ما أصابني الهبوط بالضيق والإرهاق. لم يقتصر الأمر على مجرد الإرهاق؛ فقد أدى وزني فجأة إلى ميل أحد الخطافات، ما جعلني أتأرجح، بل كدت أن أسقط إلى السواد من تحتي».

«للحظة تعلقت بالخطاف بيد واحدة، وبعد هذه التجربة لم أجرؤ على الاستراحة مرة أخرى. على الرغم من الألم الحاد في ذراعيَّ وظهري، واصلت الهبوط بأسرع حركة ممكنة عبر المهبط العمودي. ألقيت نظرة عابرة إلى أعلى ورأيت الفتحة، مجرد دائرة زرقاء صغيرة فوقي، كان هناك نجم مرئيٌّ منها، وظهرت رأس وينا كبروز أسود مستديرًا. زاد صوت هدير ماكينة أدناه ارتفاعًا ورتابة. كل شيء، ما عدا تلك الدائرة الصغيرة أعلاه، كان شديد الظلام. وعندما نظرت إلى أعلى مرة أخرى كانت وينا قد اختفت».

«كان الانزعاج يعذبني. فكرت في محاولة الصعود عبر المهبط مرة أخرى، وترك العالم السفلي بمفرده. ولكني واصلت النزول وأنا أقلب هذه الفكرة في ذهني».

«شعرت براحة كبيرة عندما رأيت بشكل مبهم ثغرة صغيرة في

جدار المهبط على بعد قدم من جهة اليمين، أخذت أتأرجح حتى وصلت إليها ودخلت، وجدت أنها فتحة لنفق أفقي ضيق حيث يمكنني أن أستلقي وأستريح».

«مرت فترة ليست طويلة. شعرت بألم في ذراعيَّ وتشنج في ظهري، وكنت أرتجف من خوفي الدائم من السقوط. هذا بالإضافة إلى أن الظلام المستمر كان يؤلم عينيَّ. حمل الهواء اهتزازت وهمهمة الماكينة التي تضخ الهواء أسفل المهبط».

«لا أدري كم من الوقت أمضيت في هذا النفق. أيقظتني يد ناعمة تلمس وجهي. قفزت في الظلام، انتزعت على عجل أعواد الثقاب وأشعلت إحداها بسرعة، فرأيت ثلاثة مخلوقات بيضاء بشعة، مماثلة لتلك التي رأيتها فوق سطح الأرض بين الأنقاض، وسرعان ما تراجعت أمام الضوء. ولأنها تعيش في ما يبدو لي ظلام لا يمكن اختراقه، كانت عيونهم كبيرة وحساسة بشكل غريب، مثل عيون الأسماك التي تعيش في أعماق المحيطات أو أي مخلوقات ليلية أخرى، وتعكس الضوء بنفس الطريقة. ليس لديَّ أدنى شك في أن بإمكانها رؤيتي في ذلك الظلام الدامس، ويبدو أنها لم تكن تخشاني وإنما تخشى الضوء. ولكن بمجرد أن أشعلت عود الثقاب لرؤيتها، فرت على الفور، وتلاشت في القنوات والأنفاق المظلمة حيث لم يظهر منها سوى لمعان عيونها المحدقة نحوي بأغرب طريقة».

«حاولت التواصل معهم، ولكن لغتهم كانت على ما يبدو

مختلفة عن لغة القوم الذين يعيشون فوق الأرض. وبالتالي وجدت نفسي متروكًا دون مساعدة في استكشافي. كانت فكرة الفرار وليس الاستكشاف، حتى في ذلك الوقت، تدور في ذهني».

«قلت لنفسي: ‹لا معنى للتراجع الآن›، وواصلت».

«متحسسًا طريقي عبر هذا النفق، زاد ارتفاع اختلاط ضجيج الآلات، والآن أصبحت الجدران بعيدة عني ووصلت إلى مساحة مفتوحة كبيرة. أشعلت عود ثقاب آخر، فرأيت أنني دخلت كهفًا مقوسًا شاسعًا يمتد في الظلام، أخيرًا، متجاوزًا نطاق ضوء عود الثقاب».

«ما رأيته من هذا الكهف كان على قدر ما يمكن للمرء أن يراه على ضوء شعلة عود الثقاب. ذاكرتي عنه مشوشة بالضرورة. ارتفعت أشكال ضخمة مثل الآلات الكبيرة وسط العتمة، وألقت ظلالًا سوداء بشعة، حيث كانت أطياف المورلوك تحتمي من الوهج. كان المكان خانقًا ومقبضًا للغاية، والهواء يحمل رائحة ضعيفة لدماء أُريقت حديثًا. رأيت في مكان ما في الوسط مائدة صغيرة من معدن أبيض انتشر فوقها ما بدا أنه وجبة. كان المورلوك قطعًا من آكلي اللحوم. أتذكر حتى أنني في ذلك الوقت أخذت أفكر في الحيوان الضخم الذي يمكنه النجاة من تزويدهم بقطعة اللحم الحمراء التي رأيتها. كان كل شيء مبهمًا. رائحة ثقيلة، وأشكال كبيرة متنافرة، وأجسام بيضاء قابعة في الظل تنتظر الظلام لتأتي نحوي مرة أخرى. ثم احترق عود الثقاب تمامًا، ولسع أصابعي، وسقط كبقعة حمراء تتلوى في السواد».

«فكرت حينذاك في مدى سوء تجهيزي بوجه خاص لهذه المهمة. عندما بدأت رحلتي بآلة الزمن، بدأت بافتراض سخيف أن رجال المستقبل سيكونون قطعًا أكثر تقدمًا بلا حدود بالنسبة لنا في جميع أدواتهم. وقد أتيت دون أسلحة، ودون أدوية، دون أي شيء للتدخين -في بعض الأحيان كنت أفتقد التبغ بشكل مخيف- وحتى من دون ما يكفي من أعواد الثقاب. ليتني فقط فكرت في جلب آلة كوداك للتصوير الفوتوغرافي! لكنت استطعت التقاط صورة لهذه اللمحة عن العالم السفلي في ثانية ودرستها على مهل. لكنني، كما كان الحال، وقفت هناك وليس معي سوى الأسلحة والقوى التي وهبتها لي الطبيعة -اليدين والقدمين والأسنان- باستثناء أربعة أعواد ثقاب آمنة هي التي تبقت معي».

«كنت أخشى أن أدفع طريقي بين جميع هذه الماكينات في الظلام، وفقط مع آخر لمحة لي من الضوء اكتشفت أن مخزون أعواد الثقاب قد انخفض. لم يخطر ببالي حتى تلك اللحظة أنني كنت في حاجة للاقتصاد في استخدامهم، وقد أهدرت ما يقرب من نصف العلبة في إدهاش قوم العالم العلوي، الذين كانت النار بدعة بالنسبة لهم. وكما قلت، تبقى لدي أربعة أعواد ثقاب فقط».

«وبينما كنت أقف في الظلام، شعرت بيد تلمسني؛ ثم بعض أصابع ضامرة تتحسس وجهي. وتشممت رائحة مزعجة وكريهة. توهمت أنني شعرت بأنفاس عدد من تلك الكائنات الصغيرة حولي.

شعرت بعلبة الثقاب تفلت من يدي بلطف، والأيدي الأخرى ورائي تجذبني من ملابسي».

«الإحساس بهذه المخلوقات غير المرئية تتفحصني كان فظيعًا إلى حد يصعب وصفه. الإدراك المفاجئ لجهلي طرق تفكيرهم وأفعالهم الممكنة أصبح واضحًا أمامي بجلاء كصورة حية في الظلام. صرخت فيهم بأعلى ما يمكن. بدأوا يبتعدون عني، ثم بدأت أشعر بهم يقتربون مني مرة أخرى. أخذوا يمسكون بي بجرأة أكبر، ويهمسون بأصوات غريبة لبعضهم. ارتجفت بعنف، وصرخت مرة أخرى، بفظاظة إلى حد ما. هذه المرة لم يأخذوا الأمر على محمل الجد، وأصدروا ضحكات عجيبة كالضوضاء وهم يقتربون نحوي مرة أخرى».

«أعترف أنني كان خائفًا بدرجة رهيبة. صممت أن أشعل عود ثقاب آخر وأهرب في ظل وهجه. تمكنت من التراجع بشكل جيد إلى النفق الضيق، محتفظًا بوهج عود الثقاب باستخدام قصاصة ورق وجدتها في جيبي. لكنني ما كدت أتمكن من دخول النفق، حتى انطفأت النار، وتمكنت من سماعهم في السواد كحفيف الريح بين أوراق الشجر وطقطقات المطر، وهم يهرعون نحوي».

«في لحظة وجدت عدة أيادٍ تمسكني مرة أخرى، وما من خطأ الآن في أنهم يحاولون جذبي نحوهم ثانية. أشعلت عود ثقاب آخر، ولوحت به ناحية وجوههم المبهورة. قد يصعب عليكم أن تتخيلوا كيف أن تلك الوجوه الشاحبة عديمة الذقون، والعيون الكبيرة الرمادية

المشوبة باللون الوردي عديمة الجفون، بدت لاإنسانية على نحو مقزز وهي تحدق بغباء، ومن الواضح أن الضوء أعماها».

«وبالتالي اكتسبت وقتًا، وتراجعت مرة أخرى. وعندما انطفأ عود الثقاب الثاني أشعلت الثالث والذي انطفأ تقريبًا عندما وصلت إلى فتحة النفق عند البئر. استلقيت على الحافة، إذ إن دوامة اهتزاز ماكينات ضخ الهواء أدناه أصابني بدوار، وتحسست الجانبين بحثًا عن الخطافات البارزة. وخلال ذلك، أمسكوا بقدمي من الخلف، وقذفوني بعنف إلى الوراء. أشعلت عود الثقاب الأخير، وانطفأ على الفور. لكن يدي كانت الآن على قضبان التسلق، فأخذت أركل المورلوك بعنف لأحرر نفسي من براثنهم ، وبسرعة أخذت أتسلق صاعدًا إلى أعلى المهبط مرة أخرى».

«ظلوا يحدقون ويختلسون النظر إلى أعلى المهبط، باستثناء مخلوق صغير واحد بائس ظل يتبعني لجزء من الطريق، والواقع أنه كاد أن يستحوذ على حذائي كغنيمة».

«بدا التسلق إلى أعلى بلا نهاية. بينما كان لا يزال أمامي آخر عشرين أو ثلاثين قدمًا لأصل، شعرت بغثيان قاتل. كانت أكبر صعوبة واجهتني هنا هي الإبقاء على قبضتي. الياردات القليلة الأخيرة كانت نضالًا مخيفًا ضد هذا الضعف. دارت رأسي عدة مرات، وشعرت بجميع أحاسيس السقوط».

«أخيرًا وصلت بطريقة ما إلى فتحة البئر، وترنحت حتى خرجت

من الأنقاض إلى ضوء الشمس الذي يغشى البصر. سقطت على وجهي. حتى التربة بدت حلوة ونظيفة».

«ثم تذكرت وينا وهي تُقبل يديَّ وأذنيَّ، وأصوات الآخرين من الإيلوي. وأعتقد أنني غبت عن الوعي لفترة».

* * *

الفصل التاسع

عندما هبط الليل

«لقد ازدادت حالتي سوءًا. فحتى الآن، ما عدا ليلة معاناتي لضياع آلة الزمن، أشعر بأمل دائم في الهرب في نهاية المطاف، لكن آمالي تهاوت بهذه الاكتشافات الجديدة. كنت أتصور أن ما يعوقني هو مجرد بساطة هؤلاء القوم الصغار الصبيانية، وبعض القوى المجهولة التي كان يجب فقط أن أفهمها كي أتغلب عليها. بيد أن هناك عنصرًا جديدًا تمامًا ظهر يتمثل في نوعية المورلوك البغيضة، شيء لاإنساني وخبيث. كنت غريزيًّا أكرههم. شعرت قبل ذلك بمثل ما يشعر المرء الذي سقط في حفرة؛ وانصب قلقي على الحفرة وكيفية الخروج منها مرة أخرى. أما الآن، أشعر كأنني وحش وقع في فخ، وسرعان ما سيأتي عدوه».

«ربما يدهشكم العدو الذي أخشاه؛ إنه ظلام القمر الجديد. فقد أدخلت وينا هذا في رأسي ببعض الملاحظات التي لم أفهمها في

البداية عن الليالي المظلمة. لكن معنى الليالي المظلمة القادمة لم يعد الآن مشكلة يصعب تخمينها. كان القمر في فترة المحاق، فترة تقلصه إلى الزوال؛ وكل ليلة هناك عبارة عن فاصل زمني أطول من الظلام. والآن فهمت، بدرجة طفيفة على الأقل، سبب خوف سكان العالم العلوي الصغار من الظلام. كنت أتساءل بشكل مبهم عن الفظائع الكريهة التي يرتكبها المورلوك تحت ظلام القمر الجديد».

«أيًّا ما كان أصل الظروف القائمة، تيقنت الآن أن فرضيتي الثانية خاطئة كليًّا. ربما كان سكان العالم العلوي في يوم ما هم الأرستقراطية المُفضلة في العالم، وكان المورلوك الميكانيكيون هم الخدم الذين يديرون الآلات. لكن هذا الوضع قد ولى منذ فترة طويلة، وأسفر تطور الإنسان عن نوعين ينحدران نحو علاقة جديدة تمامًا، أو وصلا إليها بالفعل. اضمحل الإيلوي، مثلهم مثل الملوك الكارلونجيين[٧]، وأصبحوا مجرد عبث جميل. على أنهم لا يزالون يمتلكون الأرض بمعاناة، حيث أدرك أخيرًا المورلوك، الذين يعيشون تحت الأرض منذ عدد لا يُحصى من الأجيال، أنهم لا يستطيعون احتمال السطح الذي ينيره ضوء النهار. وقد استنتجت أن المورلوك صنعوا لهم ملابسهم وأمدوهم باحتياجاتهم المعتادة؛ ربما لاستمرار عادتهم في خدمتهم منذ القدم. لقد فعلوا ذلك كحصان ينبش الأرض بحوافر أقدامه، أو كرجل يتمتع برياضة قتل الحيوانات، ذلك أن الضرورات القديمة

(٧) الكارولنجيون: هم ملوك فرنجة حكمت أوروبا من عام ٧٥٠ حتى القرن العاشر، وسميت السلالة بالكارولنجيين نسبة إلى كارل مارتل، وتعزز الاسم بسيرة شارلمان مؤسس إمبراطورية الفرنجة الذي حكم حتى عام ٨٤١. المترجمة.

والمهجورة قد تركت بصمتها على الكائن الحي. لكن النظام القديم انعكس جزئيًّا بشكل واضح بالفعل، فقد أخذ أعداء من يتمتعون بالرقة يزحفون على قدم وساق. منذ سنوات طوال، من آلاف الأجيال، دفع الإنسان شقيقه الإنسان خارج الحياة المريحة وأشعة الشمس. والآن يعود الشقيق متغيرًا. لقد بدأ الإيلوي بالفعل يتعلمون من جديد درسًا قديمًا؛ أصبحوا يعرفون الخوف مرة أخرى».

«وفجأة مرت برأسي ذكرى اللحم الذي رأيته في العالم السفلي. بدا غريبًا كيف طفت هذه الذكرى في ذهني، لم يحركها تيار تأملاتي، لكنها أتت تقريبًا مثل سؤال من خارج ذهني. حاولت أن أتذكر شكل اللحم. كان لدي شعور غامض بشيء مألوف، لكنني في ذلك الوقت لم أتمكن من معرفة كنهه».

«مع ذلك، ومهما كان عجز القوم الصغار في ظل خوفهم الغامض، كنت مختلفًا عنهم من حيث تكويني. فأنا أنتمي إلى عصرنا، حيث الجنس البشري في أوج نضجه، وحيث الخوف لا يشل الحركة والغموض فقد رهبته. يمكنني على الأقل أن أدافع عن نفسي. قررت دون إبطاء صنع أسلحة لحمايتي، والعثور على مكان يمكنني النوم فيه بأمان بحيث أستخدم هذا الملجأ كقاعدة، ويمكنني أن أواجه العالم الغريب بثقة مرة أخرى، ثقة كنت قد فقدتها عندما أدركت مدى التهديد الذي أتعرض له ليلًا من هذه المخلوقات البغيضة. شعرت أنني لن أتمكن من النوم أبدًا مرة أخرى إلى أن يصبح سريري آمنًا

منهم. كنت أرتعد رعبًا عندما أفكر هل تفحصوني بالفعل أثناء نومي؟ وكيف؟».

«تجولت خلال فترة بعد الظهيرة على طول وادي نهر التيمز، لكنني لم أعثر على شيء يثير اهتمامي كموقع للتقاعد يصعب وصولهم إليه. كان تسلُّق جميع المباني والأشجار سهلًا بشكل عملي لمتسلقين بارعين مثل المورلوك، وأنا أحكم عليهم من آبارهم. ثم عادت إلى ذاكرتي تلك القمم الطويلة لقصر الخزف الأخضر، ولمعان جدرانه المصقولة. وفي المساء، حملت وينا على كتفي كطفلة، وذهبت إلى التلال في اتجاه الجنوب الغربي».

«كنت قد حسبت المسافة بسبعة أو ثمانية أميال، ولكن لا بد أنها كانت أقرب إلى ١٨ ميلًا. عندما رأيت القصر للمرة الأولى، كان في عصر يوم رطب، ولذا كان قِصَر المسافة خادعًا. وبالإضافة إلى ذلك، كان كعب أحد فردتَي حذائي مفكوكًا، واخترق مسمار نعله -كان حذاءً قديمًا مريحًا أرتديه داخل المنزل-، ولذا أصبحتُ أسير بعرج. مضت بالفعل فترة طويلة على غروب الشمس قبل أن أصل إلى مرأى القصر، وهو واقف في صورة تشبه خيال الظل الأسود في مقابل السماء ذات اللون الأصفر الباهت».

«كانت وينا سعيدة جدًّا عندما حملتها أول مرة، لكنها بعد فترة رغبت في أن تركض بجانبي، مندفعة بين الحين والآخر على الجانبين لالتقاط الزهور ووضعها في جيوبي التي أثارت دائمًا حيرتها، لكنها

خلُصت في النهاية إلى أنها نوع غريب الأطوار من المزهريات للتزيين بالزهور. على الأقل استخدمتهم لهذا الغرض».

«هذا يُذكرني! عندما غيرت سترتي وجدت...».

(صمت المسافر عبر الزمن، ووضع يده في جيبه، وأخرج بهدوء زهرتين ذابلتين، لا تختلفان عن زهرة نبات الخبازية الكبيرة البيضاء، ووضعهما على المائدة. ثم استأنف سرده).

«مع تسلل صمت المساء إلى العالم ومواصلة سيرنا فوق قمة التل تجاه ويمبلدون، شعرت وينا بالتعب ورغبت في العودة إلى البيت المبني بالحجر الرمادي. لكنني أشرت إلى قمم قصر الخزف الأخضر التي تبدو من بعيد، وتدبرت أمري كي أوضح لها أننا نسعى إلى اللجوء إليه ليحميها من خوفها».

«أنتم تعلمون ذلك السكون العظيم الذي يخيم على الأشياء قبل الغسق. حتى النسيم توقف في الأشجار. يحيط بي دائمًا جو من التوقعات حول ذلك السكون المسائي. كانت السماء صافية، بعيدة، وخالية إلا من أشرطة أفقية قليلة بعيدة في غروب الشمس».

«في تلك الليلة اتخذت التوقعات لون مخاوفي. بدت حواسي في سكون الليل حادة على نحو خارق للطبيعة. توهمت أن بمقدوري حتى أن أشعر بخواء الأرض تحت أقدامي، وأن أرى بالفعل من خلالها المورلوك في جحورهم التي تشبه مستعمرات النمل، يتحركون جيئة وذهابًا في انتظار حلول الظلام. تخيلت وأنا في هذه الحالة المتحمسة

أنهم سيعتبرون غزوي لجحورهم إعلانا للحرب. ولكن، لماذا أخذوا آلة الزمن؟».

«واصلنا طريقنا في هدوء الليل، والشفق يزداد عمقًا ويصبح ليلًا. تلاشى صفاء اللون الأزرق عن بُعد، وبدأت النجوم تظهر واحدة تلو الأخرى. زادت قتامة الأرض وسواد الأشجار. كما زادت مخاوف وينا واشتد تعبها. أخذتها بين ذراعيّ وتحدثت معها ولاطفتها. ومع ازدياد عمق الظلام، لفت ذراعيها حول رقبتي، وأحكمت إغلاق عينيها، ووضعت وجهها على كتفي».

«هبطنا منحدرًا طويلًا، ووصولنا إلى أحد الوديان، وهناك في العتمة سرت تقريبًا داخل نهر صغير. خضت الماء، ووصلت إلى الجانب الآخر من الوادي، مررت بعدد من منازل النوم، وبتمثال بدا لي في ضوء مبهم أنه يمثل «فون»[٨] أو ما يشبهه، ولكن دون الرأس. هنا أيضًا وجدت أشجار السنط. لم أبصر حتى الآن أي مورلوك، لكن الوقت كان مبكرًا في الليل، ولم تأت بعد الساعات الأكثر قتامة قبل ارتفاع القمر القديم».

«من حافة التل التالي رأيت غابة كثيفة تنتشر سوداء على نطاق واسع أمامي. هنا ترددت. لم يكن بإمكاني أن أرى نهاية لها، سواء من ناحية اليمين أو اليسار. ولأنني كنت أشعر بالتعب –قدماي، على وجه الخصوص، كانتا تؤلمانني جدًّا– توقفت وأنزلت وينا بعناية من

(٨) كائن ميثولوجي خيالي، نصف إنسان ونصف ماعز، ورد ذكره في أساطير الميثولوجيا الرومانية. المترجمة.

فوق كتفي، وجلست على العشب. لم يعد يمكنني رؤية قصر الخزف الأخضر، وتشككت في اتجاهي».

«نظرت إلى كثافة الغابة، وفكرت في ما يمكن أن تخفيه. قد لا يرى المرء النجوم أسفل تلك الفروع كثيفة التشابك. وحتى إن لم يوجد أي خطر كامن آخر -خطر لم أهتم بأن أترك العنان لمخيلتي لتصوره-، فلا تزال هناك جميع جذور النباتات التي قد أتعثر بها، وجذوع الأشجار التي قد أصطدم بها. كنت متعبًا للغاية، أيضًا، بعد أحداث اليوم المثيرة، وقررت عدم المواجهة، لكنني سأمضي الليل على التل في العراء».

«كنت سعيدًا لاكتشاف أن وينا نامت سريعًا. غطيتها بعناية بسترتي، وجلست بجانبها في انتظار طلوع القمر. كان منحدر التل الذي جلست عليه هادئًا ومهجورًا، ولكن من قلب سواد الغابة كان تأتي بين الفينة والأخرى ضجة الكائنات الحية».

«لمعت النجوم فوقي، فقد كان الليل صافيًا. شعرت ببعض الراحة الودودة من تلألئها. بيد أن جميع المجموعات النجمية القديمة لم تظهر في السماء؛ فالحركة البطيئة غير المحسوسة خلال عشرات السنين من عمر البشرية، قد أدت منذ فترة طويلة إلى إعادة ترتيبها في تجمعات غير مألوفة. لكن درب التبانة، كما يبدو لي، كان لا يزال بنفس هيئة الشريط المتقطع من غبار النجوم كما كان منذ القدم. في اتجاه الجنوب -كما تصورت- كانت توجد نجمة حمراء ساطعة،

جديدة بالنسبة لي، وأكثر روعة حتى من نجم الشعري اليمانية الأخضر لدينا. وسط كل نقاط الضوء المتألقة هذه، سطع كوكب أحمر برقة وثبات مثل وجه صديق قديم».

«تضاءلت فجأة مشكلاتي وجميع مخاطر الحياة الأرضية، وأنا أنظر إلى هذه النجوم. فكرت في بُعدها اللامتناهي، والمجرى البطيء الحتمي لحركتها من الماضي المجهول إلى المستقبل المجهول. فكرت في الدورة المدارية القطبية العظيمة لقطب الأرض في السماء. لم تحدث هذه الثورة الصامتة سوى أربعين مرة خلال جميع السنوات التي اجتزتها. وأثناء تلك الثورات القليلة، مُحيت من الوجود جميع النشاطات، وجميع التقاليد، والمنظومات المُخطط لها بعناية، والأمم، واللغات، والأدب، والتطلعات، حتى مجرد ذكرى الإنسان كما عرفته. وفي المقابل، ظهرت هذه المخلوقات الضعيفة التي نسيت أسلافها الراقية، وتلك الحيوانات البيضاء التي أثارت خوفي. ثم فكرت في الخوف الرهيب القائم بين هذين النوعين. وللمرة الأولى، ومع قشعريرة مفاجئة، ظهرت المعرفة واضحة بشأن اللحم الذي رأيته. ومع ذلك كانت الفكرة فظيعة جدًّا! نظرت إلى وينا الصغيرة النائمة بجواري بوجهها الأبيض المشرق تحت النجوم، وفورًا طردت الفكرة من ذهني».

«أبعدت المورلوك بقدر الإمكان عن ذهني خلال هذه الليلة الطويلة، وأمضيت الوقت أحاول أن أتخيل أنني تمكنت من العثور على

آثار للمجموعات النجمية القديمة بين هذه المجموعات المختلطة. ظلت السماء صافية، ما عدا سحابة ضبابية. لا شك أنني كنت أغفو في بعض الأحيان. وعندما تيقظت، شاهدت شحوبًا في السماء جهة الشرق مثل انعكاس حريق عديم اللون، وارتفع القمر القديم رقيقًا بلغ ذروته بلونه الأبيض. وخلفه مباشرة أتى الفجر ليتجاوزه ويغمره، كان شاحبًا في البداية، وبعد ذلك تزايد لونه الوردي ودفؤه».

«لم يقترب أي مورلوك. ولم أبصر في الواقع أيًّا منهم على التل في تلك الليلة. وبثقة اليوم الجديد بدا لي أن خوفي كان غير منطقي. وقفت، ووجدت كاحل قدمي متورمًا ويؤلمني نتيجة لتفكك كعب الحذاء. جلست مرة أخرى، وخلعت حذائي، وألقيته بعيدًا».

«أيقظت وينا، وهبطنا فورًا إلى الغابة التي أصبحت الآن خضراء وساحرة، بعد أن كانت سوداء، وبغيضة. وهناك وجدنا بعض الفاكهة، كسرنا بها صيامنا. سرعان ما التقينا بآخرين لطفاء، يضحكون ويرقصون تحت ضوء الشمس، كما لو أن الليل لا يوجد في الطبيعة».

«ثم فكرت مرة أخرى في اللحم الذي رأيته، وأيقنت ماهيته، ومن أعماق قلبي أشفقت على هذا النهر الضعيف الأخير من طوفان البشرية العظيم. فمن الواضح أنه في موضع ما طوال عصور اضمحلال البشرية، نضب طعام المورلوك. ربما عاشوا على الفئران وغيرها من الآفات المماثلة. لا يزال الإنسان، حتى الآن، أقل تمييزًا وحصرية في طعامه عما كان، أقل بكثير من القردة. إن نفوره من اللحم البشري ليس غريزة

عميقة الجذور. وبالتالي فهؤلاء الأبناء غير الإنسانيين للبشر...».

«حاولت أن أنظر إلى الأمر بروح علمية. فقبل كل شيء، بالكاد ما يمكن اعتبار هذه الكائنات في عداد البشر، كانوا أقل من البشر وأكثر بُعدًا عن أسلافنا آكلي لحوم البشر بثلاثة أو أربعة آلاف سنة. كما اختفت العقول التي كان يمكن أن تجعلهم يتألمون من وضعهم. لماذا أزعج نفسي؟ الإيلوي ليسوا سوى قطيعٍ سمينٍ من الماشية، يحافظ عليهم المورلوك، الذين يشبهون النمل، ويفترسونهم، ربما يتولون تربيتهم أيضًا. هناك، كانت وينا ترقص بجانبي!».

«ثم حاولت حماية نفسي من الرعب القادم بأن أعتبره عقوبة صارمة ضد الأنانية البشرية؛ فالإنسان كان راضيًا بالعيش في راحة ومتعة على حساب عمل زميله الإنسان؛ واتخذ من الضرورة شعارًا وذريعة لذلك، وبمرور الوقت ارتدت عليه الضرورة. حاولت حتى اتخاذ نهج مشابه لنهج كاريل في احتقار هؤلاء الأرستقراطيين البائسين الآخذين في الاضمحلال».

«لكن هذا الموقف العقلي كان مستحيلًا. فمهما كان تدهورهم الفكري كبيرًا، احتفظ الإيلوي بالكثير من الشكل الإنساني، دون أن تزعموا أنني متعاطف، وتجعلوني مشاركًا بالضرورة في تدهورهم وخوفهم».

«كانت لدي في هذا الوقت أفكار مبهمة بالطبع حول المسار الذي يجب أن أتبعه. تمثلت فكرتي الأولى في تأمين مكان آمن كملجأ لي

ولوينا، وأن أصنع لنفسي أسلحة من المعدن أو الحجر بقدر ما يمكنني أن أتدبر. هذه الضرورة كانت ملحة وفورية. كنت آمل أن أتمكن في المكان القادم من الحصول على بعض وسائل إشعال النار، وبالتالي يجب أن يكون سلاح الشعلة في متناول اليد، لا لشيء إلا لأنني عرفت أنه أكثر فعالية ضد هؤلاء المورلوك. ثم أردت ابتكار وسيلة لكسر أبواب البرونز أسفل أبي الهول الأبيض. كان المدق هو ما يدور في خلدي. وكنت مقتنعًا أنني إذا تمكنت من دخول هذه الأبواب وأنا أحمل ضوء الشعلة أمامي، لا بد وأن أكتشفت آلة الزمن ثم أهرب. لم يكن بإمكاني تصور أن مورلوكس أقوياء إلى حد نقلها بعيدًا. وقررت أن أجلب وينا معي إلى عصرنا».

«قلّبت تلك الخطط في ذهني، ونحن نتابع طريقنا نحو المبنى الذي اختاره خيالي كمكان للسكنى».

* * *

الفصل العاشر

قصر الخزف الأخضر

«عندما اقتربنا من قصر الخزف الأخضر، عند الظهيرة تقريبًا، وجدته مهجورًا وأنقاضًا. لم أجد سوى بقايا خشنة من الزجاج لا تزال في نوافذه، وألواح كبيرة من واجهته الخضراء سقطت من أماكنها في الإطار المعدني المتآكل. وقف القصر مرتفعًا فوق بقعة عشبية، وقبل أن أدخله نظرت نحو الشمال الشرقي، وفوجئت لرؤية مصب نهري كبير، أو بحيرة، ورجحت أنه الموقع الذي كان يضم في يوم ما مدينتي واندسوورث وباترسي. فكرت عندئذ في ما قد حدث، أو يحدث، للكائنات الحية في البحر، لكنني لم أتابع أبدًا هذه الفكرة بعد ذلك».

«بفحص مادة القصر، أدركت أنها من الخزف فعلًا، ورأيت أعلى واجهته نقشًا بحروف غير معروفة. تصورت، بحماقة، أن وينا قد تساعدني في تفسيره، لكنني تعلمت فحسب أن فكرة الكتابة نفسها لم ترد إلى ذهنها على الإطلاق. كانت تبدو لي دائمًا، كما توهمت، أكثر

بشرية مما كانت؛ ربما لأن عواطفها كانت أقرب للبشر».

«كان المصراعان الكبيران للباب مفتوحين ومكسورين، دخلنا لكننا لم نجد القاعة التقليدية، بل وجدنا رواقًا طويلًا، تضيئه العديد من النوافذ الجانبية؛ حتى أنه ذكرني للوهلة الأولى بالمتحف. كان بلاط الأرضية تعلوه طبقة سميكة مع التراب، وهناك مجموعة رائعة من الأشياء المتنوعة التي يغطيها لون التراب الرمادي نفسه. ومن الواضح أن المكان مهجور منذ فترة طويلة جدًّا».

«ثم لاحظت ما ظهر بوضوح أنه الجزء السفلي من الهيكل العظمي لحيوان ضخم، يقف غريبًا وعملاقًا في وسط القاعة. وعندما اقتربت منه تعرفت من قدميه المائلتين أنه مخلوق ما منقرض على نمط الميجاثيريوم[٩]. كانت الجمجمة والعظام العلوية ترقد بجانبه في التراب الكثيف، وفي نفس المكان حيث تسربت مياه الأمطار خلال ثغرة في السقف كان الهيكل العظمي متحللًا. سرت في الرواق، ورأيت أيضًا ماسورة ضخمة لهيكل عظمي لديناصور من نوع برونتوسورس. تأكدت فرضيتي أنه متحف. توجهت نحو أحد جوانب الرواق، فوجدت ما بدا أنه رفوف مائلة، وعندما أزلت عنها التراب الكثيف، وجدت حاويات زجاجية قديمة مألوفة من زماننا. ولكن لا بد أنها كانت مغلقة بإحكام؛ نظرًا لاحتفاظها ببعض محتوياتها في حالة جيدة».

(٩) الميجاثيريوم: هو حيوان ضخم منقرض، من أكبر الحيوانات الثديية التي عاشت على الأرض حجمًا. المترجمة.

«من الواضح أننا نقف بين أنقاض ما كان في يوم ما سابقًا جنوب كينسينجتون. ويبدو أن هنا كان قسم العصر الحجري، لا بد أنها كانت مجموعة رائعة جدًّا من الحفريات. وعلى الرغم من أن عملية التحلل الحتمية قد توقفت لفترة، وفقدت ٩٩٪ من قواها خلال انقراض البكتيريا والفطريات، فقد كانت يقينًا تقوم بدورها مرة أخرى على جميع الكنوز، وإن كان ببطء شديد. وجدت هنا وهناك آثارًا للقوم الصغار على شكل عدد محدود من الحفريات تهشمت إلى قطع أو مربوطة في حزم فوق الأنقاض. أما الحاويات، فبعضها مأخوذ، وأعتقد أخذه المورلوك».

«كان الصمت الشديد يخيم على المكان. خفف التراب الكثيف من وقع أقدامنا. وينا، التي كانت تُدحرج قنفذ بحر على الزجاج المائل لإحدى الحاويات، أتت الآن وأنا أحدق في المكان من حولي وأمسكت بيدي في هدوء شديد ووقفت بجانبي».

«فوجئت كثيرًا في البداية من هذه الآثار القديمة لعصر فكري، بحيث لم أفكر في الاحتمالات التي طرحتها لي. بل حتى انشغالي بآلة الزمن والمورلوك تراجع قليلًا من ذهني. تلاشى الفضول المتعلق بمصير البشرية، والذي أدى إلى سفري عبر الزمن. الآن، وانطلاقًا من حجم المكان، أعتقد أن قصر الخزف الأخضر هذا كان يضم ما يزيد كثيرًا على الموجود في معرض لعلم المتحجرات، ربما كان مُجمَّعًا لمعارض تاريخية، قد يكون حتى مكتبة. بالنسبة لي، على الأقل في

ظل ظروفي الراهنة، أجده مثيرًا للاهتمام إلى حد كبير، بل أكثر إثارة للاهتمام من مشهد جيولوجيا العصر القديم في حالة الاضمحلال».

«واصلت الاستكشاف. وجدت رواقًا قصيرًا صغيرًا آخر يمتد متعامدًا مع الرواق الأول. على ما يبدو أنه كان مكرسًا للمعادن؛ فمشهد كتلة من الكبريت جعلت ذهني يتجه نحو البارود. لكنني لم أجد نترات صوديوم، ولا أي نوع من النترات في الواقع. لا شك أنها أصبحت سائلة منذ زمن بعيد. لكن الكبريت ظل معلقًا في ذهني، وأثار سلسلة من التفكير. أما بالنسبة لبقية محتويات هذا المكان، وعلى الرغم من أنها كانت على وجه العموم الأفضل حفظًا من كل ما رأيت، فقد كان اهتمامي بها قليلًا. فأنا لست أخصائيًّا في علم المعادن. سرعان ما توجهت إلى ممر شديد التدمير يمتد موازيًّا لأول قاعة دخلتها».

«يبدو أن هذا القسم كان مخصصًا للتاريخ الطبيعي، ولكن هنا كل شيء قد مرت عليه فترة طويلة منذ أن انتهى الاهتمام به. هناك بقايا مفتتة قليلة مما كان في يوم ما حيوانات محنطة، أو مومياوات مجففة في جِرار كانت مفعمة بالحياة ذات يوم، أو تراب بني اللون لنباتات هلكت، هذا كل شيء. شعرت بالأسف، لأنني لا بد كنت سأسعد لتتبع التكيُّفات البطيئة التي تحقق بموجبها هذا الاستيلاء على الطبيعة المفعمة بالحيوية».

«من هذا وصلنا إلى رواق يتسم ببساطة بأبعاد هائلة، لكن إضاءته سيئة بشكل غريب، وأرضيته تميل إلى أسفل بزاوية صغيرة من

الجهة التي دخلت منها. توجد، على مسافات، كرات بيضاء معلقة من السقف -العديد منها كان مشقوقًا أو محطمًا- مما يشير إلى أن المكان في الأصل كان مضاء صناعيًّا. هنا شعرت أنني في مكاني، فقد ارتفعت على الجانبين كتل ضخمة من الآلات الكبيرة، وجميعها متآكل إلى حد كبير، وكثير منها محطم، لكن بعضها لا يزال كاملًا إلى حد ما بجميع أجزائه. تعلمون أن لديَّ نقطة ضعف معينة تجاه الآلات، وكنت ميالًا إلى أن أسير متسكعًا بينها أكثر من ذلك، نظرًا لأن الجزء الأكبر منها كان مثيرًا كالألغاز، ولم يكن بإمكاني سوى تخمين الغرض من صنعها واستخدامها. تخيلت أنني إذا تمكنت من حل هذه الألغاز، فلا بد أن أجد نفسي ممتلكًا القوى التي يمكن استخدامها ضد المورلوك».

«فجأة أتت وينا مقتربة جدًّا بجانبي، كان ذلك على نحو مفاجئ بحيث إنها أفزعتني».

«أعتقد أنني من دونها لم أكن لألاحظ على الإطلاق أن أرضية الرواق منحدرة[١٠]. الطرف الذي دخلت منه كان فوق سطح الأرض تمامًا، وكان مضاء بنوافذ قليلة تشبه الشقوق الطولية. ومع السير هبوطًا على امتداد المكان، ارتفعت الأرضية في مواجهة هذه النوافذ، حتى وصلت في النهاية إلى حفرة تماثل مساحة بيت في لندن، أمام كل

(١٠) ربما لم تكن الأرضية منحدرة، وإنما كان المتحف مبنيًّا على أحد جوانب التل. محرر الطبعة الأمريكية.

نافذة، ولم يظهر من ضوء النهار سوى خط ضيق في الجزء العلوي. تجولت ببطء بين الآلات وأنا متحير. ركزت عليها بدرجة كبيرة إلى حد أنني لم ألحظ التناقص التدريجي للضوء، إلى أن جذب خوف وينا المتزايد انتباهي».

«ثم رأيت الرواق يمتد في النهاية داخل ظلام دامس. ترددت في مواصلة السير، ثم نظرت حولي ورأيت أن التراب هنا أقل كثافة وسطحه أقل استواء. وعلى بعد هناك، في اتجاه الظلام، بدت آثار عدد من الأقدام الصغيرة الرفيعة على التراب. وهذا ما أحيا إحساسي بوجود المورلوك القريب. وشعرت أنني أضيع وقتي في اختباراتي الأكاديمية لهذه الآلات. تذكرت أنه مضى وقت طويل منذ فترة ما بعد الظهيرة، وأنني لا زلت بلا أي سلاح أو ملجأ أو أي وسيلة لإشعال النار. وعندئذ، في السواد الذي يبدو بعيدًا في الرواق، سمعت طقطقات عجيبة وتلك الأصوات الغريبة نفسها التي سمعتها عندما كنت أسفل البئر».

«أمسكت يد وينا، ثم فجأة واتتني فكرة. تركتها، واستدرت نحو آلة برزت منها رافعة لا تختلف عن الروافع التي يضمها كشك الإشارة. تسلقت قاعدة الآلة وأمسكت بهذه الرافعة بكلتا يديَّ، وضغطت عليها بوزني كله لتميل جانبًا. بدأت وينا تتذمر، حيث تركتها بمفردها في الممر الرئيس. كان تقديري لقوة الرافعة صحيحًا إلى حد كبير، إذ انقطعت بعد الضغط عليها لمدة دقيقة. التحقت بوينا ومعي صولجان

في يدي أكثر من كافٍ، حسب تصوري، لضرب جمجمة أي مورلوك قد أواجهه».

«كنت أتوق كثيرًا لقتل مورلوك أو أكثر. قد تعتقدون أن الرغبة في قتل واحد من سلالتك هو موقف لاإنساني، وإنما كان من المستحيل بأي حال الشعور بأي إنسانية في هؤلاء. وفقط نظرًا لعدم رغبتي في ترك وينا، ولاقتناعي بأنني إذا بدأت بإشباع تعطشي للقتل فقد تتضرر آلة الزمن، هو ما منعني من التوجُّه إلى الرواق وقتل المتوحشين الذين أسمعهم هناك».

«صولجان في يد، ووينا في اليد الأخرى، خرجنا من هذا الرواق إلى رواق آخر أكبر، ذكرني للوهلة الأولى بكنيسة عسكرية ترفرف فوقها أعلام ممزقة. أدركت الآن أن الخِرق بنية اللون والمتفحمة التي تدلت من جانبيها هي بقايا كتب متحللة؛ لقد أصبحت عبارة عن قِطع منذ فترة طويلة وفقدت كل مظاهر الطباعة. ولكن هنا وهناك توجد لوحات مشوهة ومعطوبة، ومشابك معدنية تحكي القصة على نحو كاف».

«لو كنت أديبًا، ربما كانت عظتي تدور حول عدم جدوى كل طموح، لكن الفكرة التي أذهلتني بقوة كانت في الواقع هي هذا الضياع الهائل للعمل وليس الأمل، وهو ما يشهد عليه هذا المعرض الكئيب للورق المتعفن. وأعترف أن ما انشغلت به حينذاك، على الرغم من الأمر يبدو مجرد ملمح الآن، هو أنني فكرت أساسًا في الحركات

الفلسفية، وأوراقي البحثية البالغ عددها ١٧ ورقة حول البصريات الفيزيائية».

«صعدنا بعد ذلك سلمًا واسعًا ووصلنا إلى ما كان في يوم ما معرضًا للكيمياء التقنية. وهنا لم يكن لدي أدنى أمل في اكتشاف شيء يساعدني. وفي ما عدا انهيار سقف أحد الجوانب، كان المعرض محفوظًا بشكل جيد. ذهبت بحماس إلى كل حاوية من الحاويات التي لم تنكسر. وأخيرًا، وجدت في إحدى الحاويات محكمة الإغلاق علبة ثقاب. اختبرت أعواد الثقاب بحماس، وكانت جميعها في حالة جيدة تمامًا. لم تكن حتى رطبة».

«مع هذا الاكتشاف استدرت فجأة إلى وينا، وقلت لها صائحًا بلغتها: 'ارقصي!' فأنا الآن لدي سلاح بالفعل ضد المخلوقات المرعبة التي نخشاها. وهكذا في هذا المتحف المهجور، وفوق الغلاف الترابي الناعم السميك، وبما أسعد وينا كثيرًا، أديت نوعًا من الرقص المُركب، وأنا أُصفر بمرح موسيقى 'أرض ليل'. كانت جزئيًّا رقصة كانكان متواضعة، وجزئيًّا خطوة راقصة، وجزئيًّا رقصة تنورة، بقدر ما سمح ذيل معطفي، وجزئيًّا رقصة مبتكرة. فأنتم تعرفون، بطبيعة الحال، أنني مبدع».

«الآن، لا أزال أعتقد أن نجاة علبة الثقاب هذه من فِعل الزمن لسنوات سحيقة كان غريبًا، وبالنسبة لي، كان من حسن حظي. على أن الغريب جدًّا أيضًا أنني وجدت هنا مادة من المحتمل جدًّا أن تكون

كافورًا. وجدتها في جرة محكمة الإغلاق، بحيث إنني افترضتُ فعلًا أن إحكام إغلاقها في مواجهة الظروف الخارجية ليس سوى مصادفة. تصورت في البداية أن هذه المادة هي شمع البارافين، وحطمت الجرة بناء على ذلك. لكن رائحة الكافور لا لبس فيها. ما أذهلني كشيء غريب متفرد، أنه من بين هذا التحلل الشامل تصادف أن تصمد هذه المادة المتطايرة ربما لعدة آلاف من السنين. ذكرتني بلوحة بنية داكنة رأيتها ذات يوم مرسومة بحبر مصنوع من حفريات السهميات[١١] التي لا بد أنها هلكت وأصبحت متحجرة منذ ملايين السنين. كنتُ على وشك إلقاء هذا الكافور، ثم تذكرت أنه سريع الاشتعال ويحترق بلهب شديد السطوع، فوضعته في جيبي».

«على أنني لم أجد أي متفجرات، أو أي وسيلة لكسر الأبواب البرونزية. حتى الآن كانت الرافعة الحديدية هي أفضل أمل صادفته. ومع ذلك تركت هذا المعرض وأنا شديد الابتهاج باكتشافاتي».

«يصعب أن أحكي لكم قصة استكشافاتي بأكملها خلال تلك الفترة الطويلة بعد ظهر ذلك اليوم. فالأمر يتطلب من الذاكرة جهدًا كبيرًا لتذكرها بترتيبها الصحيح. أتذكر رواقًا طويلًا يضم حوامل صدئة عليها أسلحة من جميع الأزمان، وأذكر أنني ترددت بين رافعتين وبلطة

(١١) السهميات: هي مجموعة من الكائنات البحرية المنقرضة تشبه الحبارات من جوانب عديدة، ومثلهم تملك السهميات كيس حبر داخل أجسامها. المترجمة.

أو سيف، فلا يمكنني أن أحملهما معًا، على أن القضيب الحديد يُعد- قبل كل شيء- الأفضل ضد البوابات البرونزية. وجدت هنا بنادق ومسدسات ومدافع صدئة؛ معظمها كان كتلًا من الصدأ، ولكن العديد كان من الألومنيوم، ولا يزال سليمًا إلى حد كبير. لكن الأعيرة النارية أو مساحيق البارود تعفنت في التراب. رأيت أحد الأركان متفحمًا ومحطمًا؛ وتصورت أن هذا ربما يرجع إلى انفجار بين العينات المعروضة هناك. وفي مكان آخر رأيت مجموعة كبيرة من الأصنام- البولينيزية، والمكسيكية، واليونانية، والفينيقية- وأعتقد من كل بلد على وجه الأرض. وهنا، رضخت لرغبة لا تقاوم في كتابة اسمي على أنف وحش مصنوع من الحجر الصابوني الأملس من أمريكا الجنوبية أثار إعجابي».

«مع اقتراب المساء، فتر اهتمامي. تجولت من قاعة إلى أخرى، كانت القاعات متربة، ويلفها الصمت، ومدمَرة غالبًا، والمعروضات أحيانًا مجرد أكوام من الصدأ والليجنيت[١٢]، وأحيانًا أخرى أفضل حالًا. وفي أحد الأماكن وجدت نفسي فجأة قرب نموذج لمنجم قصدير، ثم اكتشفت بمحض الصدفة لفافتي ديناميت في حاوية محكمة الإغلاق؛ صحتُ: 'وجدتها!'، وحطمتُ الحاوية فرحًا. ثم ساورني شك. ترددت، ثم اخترت قاعة عرض جانبية صغيرة وأجريت

(١٢) نوع من الفحم الحجري. المترجمة.

تجربتي. لم أشعر أبدًا بخيبة أمل مريرة كما شعرت حينذاك، حيث انتظرت خمس دقائق، ثم عشرًا، ثم خمس عشرة دقيقة، للانفجار الذي لم يحدث أبدًا. بطبيعة الحال كانت هذه الأشياء للعرض، كما خمنت من مظهر وجودها هناك. وأعتقد حقًّا أنها إن لم تكن للعرض فقط، لكنت ركضت دون توقف إلى هناك وفجرت أبا الهول والبوابات البرونزية، وفجرت معها فكرة العثور على آلة الزمن (كما سيثبت بعد ذلك)».

«أعتقد أننا وصلنا بعد ذلك إلى فناء صغير مفتوح داخل القصر، يكسو العشب أرضه ويضم ثلاث أشجار فاكهة. استرحنا هناك، وأنعشنا أنفسنا».

«قرب الغروب، بدأت أتأمل وضعنا. بدأ الليل يزحف الآن ولم أجد بعد مكانًا للاختباء، وكان يجب أن أعثر عليه. لكن ذلك لم يعُد يشغلني كثيرًا الآن. فقد كان في حوزتي شيء ربما هو الأفضل في مواجهة جميع دفاعات المورلوك. كان لديَّ أعواد الثقاب مرة أخرى. كما كان الكافور في جيبي إذا تطلب الأمر شُعلة. بدا لي أن أفضل شيء يمكن أن نفعله هو تمضية الليل في العراء مرة أخرى، في ظل حماية النار».

«في الصباح كانت لديَّ مهمة العثور على آلة الزمن. ولتحقيق ذلك، لا أملك حتى الآن سوى الصولجان الحديد. لكنني مع تنامي

معرفتي، اختلف شعوري تمامًا تجاه الأبواب البرونزية عن ذي قبل. لقد امتنعت حتى الآن عن فتحها بالقوة، ويرجع ذلك إلى حد كبير بسبب الغموض على الجانب الآخر. لم تثر إعجابي أبدًا باعتبارها قوية، وكنت آمل أن أجد القضيب الحديد مناسبًا للعمل».

* * *

الفصل الحادي عشر

في ظلام الغابة

«خرجنا من قصر الخزف الأخضر، بينما جزء من الشمس لا يزال في الأفق. كنت عازمًا على الوصول إلى أبي الهول الأبيض في باكورة صباح اليوم التالي، وقررت أن أتوجه قبل الغسق إلى الغابة التي لم أدخلها في رحلتي السابقة. كانت خطتي أن أسير إلى أبعد مسافة ممكنة في تلك الليلة، ثم أشعل حريقًا حولنا حتى ننام تحت حماية لهبه. وبالتالي أخذت أجمع على طول الطريق أي عِصيٍّ أو أعشاب جافة أراها، والآن ذراعاي مليئتان بمثل هذه النفايات. ونظرًا لثقل الحِمل، كان تقدمنا أبطأ مما توقعتُ، هذا إلى جانب شعور وينا بالتعب. كما أنني أيضًا بدأت أشعر بالنعاس، وقد هبط الليل كاملًا قبل أن نصل إلى الغابة».

«الآن، عند حافة التل المغطى بالشجيرات، توقفت وينا خوفًا من الظلام أمامنا. لكن شعورًا غريبًا بكارثة وشيكة دفعني إلى الاستمرار،

وكان في الواقع بمثابة تحذير لي. لقد بقيت دون نوم لمدة ليلة ويومين، وعانيت من الحمى والتوتر. شعرت أن النوم سيأتي، ومعه المورلوك».

«بينما كنا مترددين، رأيت بين الشجيرات في أعلى المنحدر خلفنا، والقتامة في مواجهة السماء، ثلاثه أشكال رابضة. كانت الأشجار منخفضة والأعشاب طويلة حولنا، ولم أشعر أننا آمنين من اقترابهم الغادر. قدّرت اتساع الغابة بأقل من ميل. إذا أمكننا عبورها، فإن منحدر التل في الناحية الأخرى كان خاليًا، وبدا لي أنه برمته مكانًا أكثر أمانًا للراحة. وفكرت أن بإمكاني، وأنا مُسلح بأعواد الثقاب والكافور، أن أتدبر الحفاظ على طريقي مضيئًا عبر الغابة. ومع ذلك كان واضحًا أنني إذا أردت التلويح بأعواد الثقاب مستخدمًا يدي، فيجب أن أتخلى عن الحطب الذي أحمله. ولذا تركته كارهًا».

«ثم تبادر إلى ذهني أنني بإشعاله سوف أُصيب أصدقاءنا الذين يأتون خلفنا بالدهشة. وفي نهاية المطاف سوف أكتشف الحماقة الفظيعة من جراء هذا التصرف، لكنها حينذاك تبادرت إلى ذهني كخطوة بارعة لتغطي تراجعنا».

«لا أعرف إذا كنتم قد فكرتم على الإطلاق في مدى ندرة حدوث النيران في غياب الإنسان وفي ظل مناخ معتدل. نادرًا ما تكون حرارة الشمس قوية بما يكفي لإحداث حريق، حتى عندما تتركز بفعل

قطرات الندى، كما هو الحال أحيانًا في المناطق الاستوائية. البرق قد يضرب ويشيع السواد، ولكنه نادرًا ما يؤدي إلى حرائق واسعة النطاق. وقد تختنق النباتات المتحللة أحيانًا بفعل حرارة التخمير، لكن هذا مرة أخرى نادرًا ما يسفر عن ألسنة لهيب. الآن، في عصر الاضمحلال هذا، تم نسيان فن صنع النار تمامًا على الأرض. وكانت الألسنة الحمراء التي أخذت تلعق كومة الخشب شيئًا جديدًا برمته وغريبًا تمامًا بالنسبة إلى وينا».

«كانت تريد أن تذهب إليها وتلعب بها. وأعتقد أنها كان يمكن أن تلقي بنفسها فيها لو لم أمنعها من ذلك. لكنني أمسكت بها، وعلى الرغم من مقاومتها فقد اندفعت بجرأة أمامي إلى الغابة. أضاء وهج النيران التي أشعلتها طريقنا لمسافة قصيرة. وعندما نظرت إلى الوراء، كان يمكنني حاليًا أن أرى، من خلال جذوع الأشجار المزدحمة، أن كومة العصي أدت إلى انتشار الحريق إلى بعض الشجيرات المجاورة، وكان خط مُنحنٍ من النار يزحف نحو عشب التل. أضحكني ذلك».

«استدرت نحو الأشجار المظلمة أمامي مرة أخرى. كان السواد حالكًا، وتشبثت بي وينا بتشنج، لكنَّ عينيَّ قد اعتادتا على الظلام، ولذا كان بعض الضوء المتبقي كافيًا لتجنب التعثر في جذوع الأشجار. خيم السواد ببساطة فوقنا، ما عدا عندما تظهر هنا وهناك فجوة من سماء زرقاء بعيدة. لم أشعل أيًّا من أعواد الثقاب؛ لأن يديَّ كانتا

مشغولتين. فقد حملت وينا الصغيرة على ذراعي الأيسر، وأمسكت بيدي اليمنى القضيب الحديدي الذي انتزعته من الآلة».

«ظللت لفترة خلال الطريق لا أسمع أي شيء سوى طقطقة الأغصان تحت قدمي وحفيف ضعيف للنسيم، فضلًا عن تنفسي ونبض الأوعية الدموية في أذني. ثم بدا لي أنني أسمع طقطقات من حولي».

«تابعت السير متجهمًا. أصبحت الطقطقات أكثر وضوحًا، ثم سمعت نفس الأصوات العجيبة التي سمعتها من قبل في العالم السفلي. من الواضح أن هناك العديد من المورلوك، وأنهم يضيقون علينا الخناق».

«في لحظة أخرى شعرت بشيء يجذب معطفي، ثم شيء في ذراعي. ارتجفت وينا بعنف وتسمرت في مكانها».

«حان وقت استخدام عود ثقاب. ولكن للحصول عليه، يجب أن أُنزِل وينا عن ذراعي. وفعلت ذلك، وعلى الفور وأنا أبحث في جيبي بدأت معركة في الظلام حول ركبتي حيث كانت وينا صامتة تمامًا في حين يصدر المورلوك نفس أصوات الهديل. كانت هناك أيدٍ ناعمة صغيرة تتحسس أيضًا معطفي وظهري، وتلمس حتى رقبتي».

«اشتعل عود الثقاب محدثًا صوت أزيز. حملته مشتعلًا، وعلى الفور أصبحت ظهور المورلوك البيضاء مرئية خلال فرارهم وسط

الأشجار. وعلى عجل أخذت قطعة كافور من جيبي وتأهبت لإشعالها ما إن يخبو عود الثقاب».

«ثم نظرتُ إلى وينا. كانت ترقد ممسكة بقدمي وبلا حراك تمامًا، ووجهها إلى الأرض. انحنيت بخوف مفاجئ لأرى ما بها. يبدو أنها كانت تعاني من صعوبة في التنفس. أشعلت كتلة الكافور، وطرحتها جانبًا على الأرض، وعندما كانت تشتعل وتتوهج وتُبعد المورلوك والظلال، جثوت على ركبتي وحملت وينا. بدت الغابة خلفنا مليئة بالاهتياج والهمهمة من مجموعة كبيرة من المخلوقات».

«على ما يبدو أن وينا أُغمى عليها. وضعتُها بعناية على كتفي وقمت لمواصلة السير، ثم جاءني إدراك فظيع».

«أثناء مناوراتي مع أعواد الثقاب ووينا، استدرت عدة مرات، فليس لدي الآن أدنى فكرة عن اتجاه مساري. فكل ما أعرفه أنني قد أكون في مواجهة قصر الخزف الأخضر مرة أخرى».

«وجدتني أتصبب عرقًا باردًا. يجب أن أفكر سريعًا في ما يجب عمله. عقدت العزم على إشعال نار وأن نخيم حيث كنا. وضعت وينا التي كانت بلا حراك فوق جذع معشوشب. وعلى عجل، عندما خبت أول قطعة من الكافور، بدأت في جمع العصي وأوراق الشجر».

«هنا وهناك، من داخل الظلام حولي، كانت عيون المورلوك تلمع كالجمر».

«حاليًا وَمَض الكافور ثم انطفأ. أشعلت عود ثقاب، وعندئذ رأيت شكلين أبيضين يبتعدان بسرعة بعد أن كانا يقتربان من وينا. أحدهما أعماه الضوء إلى حد أنه جاء مباشرة نحوي، وشعرت بطحن عظامه تحت ضربة قبضة يدي. أصدر صوتًا فزعًا كالنعيق، وترنح قليلًا، ثم سقط».

«أشعلت قطعة كافور أخرى، وذهبت لجمع أغراض إشعال النار. لاحظت حاليًا مدى جفاف بعض أوراق الشجر فوقي، ذلك أنني منذ أن وصلت بآلة الزمن، من حوالي أسبوع، لم يهطل المطر. وبالتالي، بدلًا من البحث بين الأشجار عن أغصان سقطت، بدأت أقفز لأجذب الفروع. وسرعان ما أصبحت لديَّ نيران ذات دخان خانق، من الخشب المعشوشب والعصي الجافة، وأمكنني أن أنقذ كتل الكافور الأُخرى».

«ثم استدرتُ إلى الموضع الذي ترقد فيه وينا بجوار الصولجان الحديدي. حاولت ما بوسعي لإنعاشها، لكنها كانت مستلقية كشخص وافته المنية. لم أستطع حتَّى التأكد إذا كانت تتنفس أم لا».

«تطاير دخان الحريق نحوي، ولا بد أنه جعلني أشعر بتثاقل فجائي. هذا بالإضافة إلى بخار الكافور في الهواء. لن تحتاج النيران إلى تجديدها لمدة ساعة أو نحو ذلك. شعرت بإرهاق شديد بعد هذا المجهود، فجلست. امتلأت الغابة أيضًا بهمهمات ناعسة لم أفهمها».

«كان رأسي يتمايل فأفتح عيني. ثم لف الظلام كل شيء حولي، ووضع المورلوك أياديهم فوقي. أبعدت أصابعهم المتشبثة، وتحسست جيبي على عجل باحثًا عن علبة الثقاب، و... لم أجدها! ثم أمسكوا بي وأطبقوا عليَّ مرة أخرى».

«في لحظة عرفتُ ما حدث. لقد نمتُ، وانطفأت النار، وغطت مرارة الموت روحي. بدت الغابة مليئة برائحة الخشب المحترق. لقد أمسكوني من رقبتي، ومن شَعري، ومن ذراعيَّ، وسحبوني. يا لها من فظاعة لا توصف أن تشعر في الظلام بجميع هذه المخلوقات الناعمة تتكوم فوقك. شعرتُ كأنني وسط شبكة عنكبوت فظيعة. لقد تغلبوا عليَّ. هزموني».

«أحسست بأسنان صغيرة تقرض رقبتي، فتدحرجت على حين غرة، وعندئذ اقتربت يدي من الرافعة الحديدية وأمسكت بها. منحني هذا بشكل ما القوة لبذل جهد آخر. جاهدت كي أنهض، وأنا أنتفض لأبعد هذه الفئران البشرية عني، ثم أمسكت القضيب الحديدي وأخذت أضرب به وفق تصوري لمواقع وجوههم. شعرت بنضارة اللحم والعظام تحت ضرباتي، وتحررت للحظة».

«أحسست بالابتهاج الغريب الذي غالبًا ما يصاحب القتال. كنت أعرف أن كلينا، أنا ووينا، في عداد الموتى، لكنني عقدت العزم على جعل المورلوك يدفعون ثمن وجبتهم. وقفت وظهري مستند

إلى شجرة، ملوحًا بالقضيب الحديدي. وكانت الغابة كلها مملوءة بضجيجهم وصيحاتهم».

«مرت دقيقة. وبدا أن أصواتهم ترتفع إلى نبرة انفعالية أعلى وأصبحت حركتهم أسرع. لكن أحدًا منهم لم يكن في متناولي. وقفت صارخًا في ظل السواد. ثم فجأة جاء الأمل».

«ماذا لو كان المورلوك لا يتحلون بالشجاعة؟».

«وسرعان ما حدث شيء غريب في أعقاب ذلك. بدا أن هناك ضوءًا يتنامى وسط الظلام. بدأت أرى بشكل شاحب المورلوك من حولي -ثلاثة يضربون على قدمي-، ثم أدركت بدهشة مشوبة بالشك أن الآخرين يركضون في تدفق متواصل، كما بدا لي، من خلفي، وبعيدًا نحو الغابة أمامي. وبدا أن ظهورهم لم تعد بيضاء، وإنما أقرب إلى الاحمرار».

«وقفت فاغرًا فاهي من الدهشة، ثم رأيت، عبر فجوة أضاءتها النجوم بين الفروع، شرارة حمراء صغيرة تدفعها الرياح، ثم تتلاشى. وهنا فهمت رائحة حرق الخشب، والهمهمة الناعسة التي أخذت تتزايد الآن إلى زئير هادر، والوهج الأحمر، وفرار المورلوك».

«خرجت من خلف الشجرة ونظرت إلى الوراء، فرأيت من خلال الركائز الخلفية لأقرب الأشجار نيران الغابة المحترقة. مما لا شك فيه أنها ناتجة عن أول نار أشعلتها وهي الآن قادمة تتبعني. بحثت عن

وينا بسرعة، لكنها اختفت. أصوات الهسهسة والفرقعة ورائي، فضلًا عن الهدير المتفجر لكل شجرة جديدة تشتعل، لم يترك أمامي أي وقت للتفكير. مع القضيب الحديدي الذي لا يزال في يدي، تابعت مسار المورلوك».

«كان سباقًا متقاربًا. ما إن تسللت النيران إلى يميني بسرعة وأنا أركض، حتى استدرتُ، وكنت مضطرًا أن اتجه نحو اليسار. لكنني وصلت أخيرًا إلى مكان مفتوح صغير، وعندئذ اتجه نحوي مورلوك متخبطًا، وتجاوزني، وذهب مباشرة إلى النيران».

«ثم رأيت أغرب وأفظع مشهد، كما أعتقد، من كل ما رأيته في ذلك الزمن المستقبلي».

«كانت هذه الساحة كلها مضيئة كأننا في النهار، نتيجة لانعكاس النيران. وفي المنتصف توجد رابية أو تلة صغيرة محاطة بنبات الزعرور البري المحترق. ووراء هذا التل توجد ذراع أخرى من الغابة المحروقة، تتلوى خارجة منها فعلًا ألسنة صفراء، وتطوق بالكامل هذه الساحة بسياج من النار. وعند سفح التل كان هناك ربما ثلاثون أو أربعون مورلوك، بهرهم ضوء وحرارة النيران التي أصبحت الآن شديدة السطوع والسخونة، فأخذوا يتخبطون جيئة وذهابًا في بعضهم مذهولين. في البداية لم أدرك أنهم لا يبصرون، وضربتهم بالقضيب بشراسة في هلع جنوني وهم يقتربون مني، مما أسفر عن مقتل واحد

منهم وعدم قدرة آخرين عدة على الحركة. لكنني عندما شاهدت إيماءات أحدهم وهو يتلمس طريقه عبر الزعرور البري في مواجهة السماء الحمراء، واستمعت إلى تنفيسهم لأنينهم، تأكدت من ضعفهم المطلق وتوقفت عن ضرب أي منهم مرة أخرى. وبين الحين والآخر كان يأتي أحدهم مباشرة تجاهي، مما يثير ارتعاشي رعبًا ويجعلني أتملص منه بسرعة. في وقت ما، خمدت ألسنة اللهيب إلى حد ما، وخشيت أن تتمكن هذه المخلوقات الكريهة الآن من رؤيتي، بل وفكرت حتى في بدء المعركة بقتل بعضهم قبل أن يحدث هذا، لكن النار اندلعت مرة أخرى بقوة فأمسكت يدي عن القيام بذلك. سرت حول التل بينهم، وتجنبتهم، باحثًا عن أي أثر لوينا، لكنني لم أعثر على شيء».

«وأخيرًا جلست على قمة الرابية وشاهدت هذه المجموعة الغريبة من المكفوفين، يتلمسون طريقهم ذهابًا وإيابًا ويصدرون ضوضاء عجيبة مع زيادة توهج النيران. تدفق الدخان متصاعدًا بالتفاف إلى السماء، ومن خلال القطع الصغيرة المتقطعة من السماء الحمراء، البعيدة كما لو أنها تنتمي إلى عالم آخر، لمعت النجوم الصغيرة. جاء اثنان أو ثلاثة من المورلوك يتخبطون ناحيتي، وأبعدتهم عني بلكمات قبضة يدي، كما فعلت سابقًا، وأنا أرتعد خوفًا. كنت مقتنعًا معظم تلك الليلة أنه كابوس. عضضت نفسي، وصرخت بصوت عال في رغبة متحمسة أن أستيقظ. ضربت الأرض بيديَّ، ونهضت، وجلست

مرة أخرى، ثم تجولت هنا وهناك، وجلست مرة أخرى على قمة التل. ثم فركتُ عيني ودعوت الله أن أستيقظ. رأيت المورلوك ثلاث مرات يخفضون رؤوسهم في نوع من العذاب ويهرعون داخل النيران. وأخيرًا جاء ضوء النهار الأبيض مرتفعًا فوق حُمرة النيران التي بدأت تنحسر، وفوق تدفق كتل الدخان الأسود، وفوق بياض وسواد جذوع الأشجار، وتناقص أعداد هذه المخلوقات القاتمة».

«بحثت مرة أخرى عبر الساحة المفتوحة عن أي أثر لوينا، لكنني لم أجد أي شيء، كنت شبه خائف أن أجد رفاتها المشوه، ولكن من الواضح أنهم تركوا جسدها النحيل الصغير في الغابة. لا أستطيع أن أصف مدى شعوري بالارتياح لنجاتي من هذا المصير المرعب الذي كان يبدو مقدرًا لي. وعندما فكرت في ذلك، كانت بداخلي رغبة إلى بدء مذبحة ضد هذه الفظائع من حولي، لكنني احتويت هذه الرغبة. هذه الرابية، كما قلت، كانت نوعًا من جزيرة في الغابة. من قمتها يمكنني الآن أن أرى، عبر ضباب الدخان، قصر الخزف الأخضر، ومن هناك يمكنني تبيُّن اتجاهي لتمثال أبي الهول الأبيض. وبالتالي تركت من تبقى من تلك النفوس اللعينة تتحرك هنا وهناك وهي تئن، مع تنامي طلوع النهار أكثر وضوحًا، وقمت بربط بعض الحشائش حول قدمي، ومشيت وأنا أعرج عبر الرماد الذي ينفث دخانًا وبين الجذوع السوداء التي لا تزال النيران تنبض داخلها، متجهًا نحو مكان إخفاء آلة الزمن».

«مشيت ببطء، حيث كنت مستنفدًا تقريبًا، فضلًا عن العرج، وشعرت بأشد تعاسة للميتة الرهيبة التي حدثت لوينا، والتي بدت حينذاك كارثة ساحقة. ومع ذلك، فحتى الآن، وأقول لكم ذلك في هذه الغرفة المألوفة القديمة، بدا الأمر لي أشبه بحزن ناتج عن حلم أكثر منه خسارة فعلية. ولكنها تركتني وحيدًا تمامًا مرة أخرى في ذلك الصباح، وحيدًا بدرجة فظيعة. بدأت أفكر في بيتي هذا، وفي هذه المدفأة، وفي بعضكم، ومع مثل هذه الأفكار شعرت باشتياق مؤلم».

«وخلال سيري على الرماد الذي ينفث دخانًا، تحت سماء الصباح المشرق، توصلت إلى اكتشاف. لا يزال في جيب بنطلوني بعض أعواد الثقاب. لابد أنها تسربت من العلبة قبل أن تضيع!».

* * *

الفصل الثاني عشر
فخ أبي الهول الأبيض

«في حوالي الساعة الثامنة أو التاسعة صباحًا، وصلت إلى المقعد نفسه المصنوع من المعدن الأصفر الذي نظرت منه إلى العالم في مساء وصولي. فكرت في استنتاجاتي المتسرعة ذلك المساء، ولم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك بمرارة على مدى ثقتي. هنا كان نفس المشهد الجميل، ونفس أوراق الشجر الوفيرة، ونفس القصور الرائعة والأطلال الساحرة، ونفس النهر الفضي الذي يجري بين ضفافه الخصبة. كان القوم اللطفاء بملابسهم البهيجة يتحركون هنا وهناك بين الأشجار، وبعضهم يستحم في نفس المكان تحديدًا الذي أنقذت فيه وينا، وهو ما أشعرني فجأة بطعنة ألم شديدة. ارتفعت القباب، مثل البقع على صور المناظر الطبيعية، فوق الطرق المؤدية إلى العالم السفلي. فهمت الآن ماهية جمال قوم العالم العلوي. كان

يومهم ممتعًا، مثل متعة اليوم بالنسبة للماشية في الحقل. فهم مثل الماشية لا يعرفون أي أعداء، ومزودون في مواجهة أي احتياجات. ونهايتهم نفسها».

«حزنت من تفكيري حول حلم العقل البشري وكيف كان قصيرًا. لقد انتحر. فقد وجه نفسه بثبات نحو الراحة واليسر، ونحو مجتمع متوازن شعاره الأمن والدوام، وحقق آماله بأن وصل إلى هذا الوضع في النهاية. لا بد أن الحياة والممتلكات وصلت في يوم ما إلى السلامة المطلقة تقريبًا. اعتمد الأغنياء مطمئنين على ثرواتهم ورفاههم، واطمأنَّ الكادحون على حياتهم وأعمالهم. لا شك أن هذا العالم المثالي لا يعاني من مشكلة البطالة، ولا توجد أي مسألة اجتماعية متروكة دون حل. ثم تبع ذلك راحة بال عظيمة».

«إننا نغفل قانونًا من قوانين الطبيعة وهو أن البراعة الفكرية هي تعويض عن التغيير والمخاطر والمتاعب. فالحيوان الذي يعيش في وئام تام مع بيئته يتمتع بآلية مثالية. والطبيعة لا تلجأ أبدًا إلى الذكاء إلا عندما تصبح العادات والغرائز عديمة الفائدة. لا يوجد ذكاء عندما لا يوجد تغيير. ولا توجد حاجة للتغيير. فقط تلك الحيوانات التي تتقاسم الذكاء هي التي يجب أن تواجه مجموعة ضخمة من الاحتياجات والمخاطر».

«وهكذا -كما أتصور- جنح قوم العالم العلوي نحو وسامتهم

الضعيفة، وجنح سكان العالم السفلي نحو الصناعة الميكانيكية فحسب. لكن هذا الوضع المثالي كان يفتقر إلى شيء واحد مساو للكمال الميكانيكي، وهو الديمومة المطلقة. على ما يبدو أنه مع مرور الوقت، تحللت تغذية العالم السفلي، مهما كان مدى تأثرها. وعاد مرة أخرى شعار الحاجة أم الاختراع، الذي كان قد ولَّى لبضعة آلاف من السنين، وبدأ في العالم السفلي. كان العالم السفلي متصلًا بآلات لا تزال، مهما كان كمالها، تحتاج إلى القليل من الفكر خارج ما تم اعتياده، ولذا ربما أبقى على الضرورة وليس المبادرة أكثر من سكان العالم العلوي، وإن كان أقل من أي طابع بشري آخر. وعندما انتهت اللحوم الأخرى، تحولوا إلى العادة القديمة التي كانت حينذاك محرمة. إذن أقول إن هذه كانت رؤيتي للأمر كما تشكل أمامي عالم سنة ٨١٠٧٠١. قد يكون تفسيرًا خاطئًا ناتجًا عن اخترع عقل بشري فانٍ. هكذا شكلت الأشياء نفسها أمامي، وأحكيها لكم كما هي».

«بعد المتاعب، والإثارة، وأهوال الأيام الماضية، وعلى الرغم من حزني، فإن هذا المقعد والمشهد الهادئ وأشعة الشمس الدافئة كانت ممتعة جدًّا. كنت متعبًا للغاية وأشعر بالنعاس، وسرعان ما انتقلت من التنظير إلى الغفوة. وعندما أمسكت نفسي في هذا الوضع، تنبهت إلى شعوري بالنعاس وتمددت على العشب، ونمت نومًا طويلًا منعشًا».

«استيقظت قبل غروب الشمس بقليل. أشعر الآن أنني آمن في

مواجهة هجمة المورلوك أثناء قيلولتي، وقمت هابطًا أسفل التل تجاه أبي الهول الأبيض. أمسكت العتلة بإحدى يديَّ، وكانت يدي الأخرى تعبث بأعواد الثقاب في جيبي».

«والآن حدث شيء غير متوقع على الإطلاق. عندما اقتربت من قاعدة تمثال أبي الهول، وجدت لوحاته البرونزية مفتوحة. لقد انزلقت إلى أسفل داخل أخاديد».

«وهنا توقفت برهة أمامها، مترددًا في الدخول».

«توجد في الداخل شقة صغيرة، وفي مكان مرتفع في أحد الأركان كانت توجد آلة الزمن. كانت رافعاتها الصغيرة في جيبي. وبالتالي هنا، وبعد كل استعداداتي المُحكمة للحصار المفروض على أبي الهول الأبيض، كان استسلامي وديعًا. ألقيت القضيب الحديدي بعيدًا، وأنا آسف تقريبًا على عدم استخدامه».

«واتتني فكرة مفاجئة وأنا أنحني نحو المدخل. لمرة واحدة على الأقل أدركت كنه عمليات المورلوك العقلية. وخلال مقاومتي لرغبة قوية في الضحك، دخلت من خلال الإطار البرونزي ثم صعدت لأصل إلى آلة الزمن. فوجئت عندما وجدتها مزيتة ومنظفة بعناية. لقد كنت أشك في أن المورلوك قد فككوها جزئيًّا إلى قطع وهم يحاولون بطريقتهم الخرقاء فهم الغرض منها».

«الآن، وبينما أقفُ وأتفحصها، مستمتعًا بمجرد لمسها، حدث

الشيء الذي توقعته. اللوحات البرونزية انزلقت فجأة واصطدمت بالإطار محدثة صوت كالرنين. كنت في الظلام محاصرًا. هكذا تصور المورلوك. وهنا ضحكتُ بيني وبين نفسي مبتهجًا».

«يمكنني بالفعل سماع همهمات ضحكاتهم وهو يتوجهون نحوي. وبهدوء شديد حاولت إشعال عود ثقاب. كان عليَّ فقط تثبيت الروافع والمغادرة كشبح. لكنني أغفلت شيئًا واحدًا بسيطًا. كانت أعواد الثقاب من ذلك النوع البغيض الذي لا يشتعل إلا بالاحتكاك بالعلبة».

«لكم أن تتخيلوا كيف تلاشى هدوئي. كان المتوحشون الصغار يقتربون مني. ولمسني أحدهم. سددت نحوهم ضربة كاسحة في الظلام بالرافعة، وبدأت أتسلق نحو مقعد الآلة. ثم جاءت يد فوقي من ناحية، ثم يد أخرى».

«من ثم كان علي ببساطة مقاومة أصابعهم العنيدة التي تحاول الوصول إلى الروافع، وفي نفس الوقت أتحسس القوائم التي تُثبّت الروافع فوقها. في واقع الأمر، كادت إحدى الروافع أن تفلت مني بالفعل؛ إذ انزلقت من يدي واضطررت إلى أن أنطح برأسي في الظلام لاستعادتها، وأمكنني أن أسمع صوت اصطدام رأسي بجمجمة أحد المورلوك. أعتقد أن هذا التدافع الأخير كان أقرب شيء إلى القتال الذي حدث في الغابة».

«لكني تمكنتُ أخيرًا من تثبيت الرافعة وانطلقت. تراجعت الأيدي التي كانت متشبثة بي. انقشع الظلام الآن عن عينيَّ. وجدت نفسي في نفس الضوء الرمادي والاضطراب الذي وصفته من قبل».

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث عشر

مشهد آخر

«لقد سبق أن أخبرتكم عن الغثيان والارتباك الذي يصاحب السفر عبر الزمن. هذه المرة لم أكن أجلس بشكل صحيح في مقعد الآلة، وإنما بشكل مائل ودون استقرار. تشبثت بالآلة لفترة غير محددة بوضوح، وهي تتأرجح وتهتز، غير منتبه على الإطلاق لوجهتي، وعندما نظرت إلى العقارب مرة أخرى، دُهشت عندما عرفت مكان وصولي. كان أحد العقارب يسجل الأيام، وآخر يسجل آلافًا من الأيام، وثالث يسجلها بملايين الأيام، ورابع يسجلها بآلاف من الملايين. الآن، بدلًا من عكس الروافع قمت بجذبها بغية المضي قدمًا معها، وعندما ألقيت نظرة إلى المؤشرات، وجدت أن عقرب الآلاف كان يتأرجح بسرعة تماثل سرعة عقرب الثواني في الساعة، متجهًا نحو المستقبل».

«بدأت أعكس حركتي بحذر شديد، إذ تذكرت سقوطي المتهور السابق. أخذت العقارب تبطئ شيئًا فشيئًا، حتى بدا عقرب الآلاف ساكنًا بلا حراك، ولم يعُد عقرب الأيام مجرد غشاوة على المقياس. استمر التباطؤ حتى ازداد وضوح الضباب الرمادي حولي، وأصبحت أرى الخطوط العريضة القاتمة لتل منخفض وبحر».

«على أنني مع تباطؤ الحركة، لم أشهد وميض تغير النهار والليل. تغطت الأرض بشفق مطرد. كما لاحظت أن شريط الضوء الذي كان يشير إلى الشمس أصبح أكثر خفوتًا، وتلاشى في الواقع تجاه الشرق، وتزايد اتساع نطاقه واحمراره جهة الغرب. وأتاحت زيادة بطء حركة النجوم مكانًا لنقاط الضوء الزاحفة. أخيرًا، وقبل أن أتوقف بفترة، أصبحت الشمس الحمراء الكبيرة ساكنة دون حراك على الأفق، مثل قبة هائلة تتوهج بحرارة ضعيفة. لقد أُنجِزت حركات المد والجزر. وسكنت الأرض وأحد وجوهها ناحية الشمس، مثلما يواجه القمر الأرض في عصرنا».

«توقفت بهدوء شديد وجلست على آلة الزمن أنظر حولي».

«لم تعد السماء زرقاء، بل مكتسية بلون أسود حبري ناحية الشمال الشرقي، ولمعت بسطوع واطراد من وسط السواد تلك النجوم البيضاء الباهتة. وساد فوقها اللون الأحمر الهندي الداكن، دون نجوم. أما في جهة الجنوب الشرقي، كانت السماء أكثر إشراقا حيث يقف هيكل الشمس الحمراء الضخمة بلا حراك، يقطعه الأفق».

«اكتست الصخور حولي بلون ضارب إلى الحُمرة الشديدة، وكان أثر الحياة الوحيد الذي يمكن أن أراه في البداية هو الحياة النباتية الخضراء التي غطت كثافتها كل نقطة بارزة في جهة الجنوب الشرقي. كان نفس الخَضَار الغني الذي يراه المرء في مستنقعات الغابات أو على نباتات الأشنة في الكهوف، وهي نباتات مثل هذه تنمو في الشفق الدائم».

«كانت الآلة تقف على شاطئ منحدر. امتد البحر بعيدًا نحو الجنوب الغربي حتى ارتفع إلى أفق مشرق حاد في مواجهة السماء الشاحبة. لم أبصر أي أمواج تنكسر على الشاطئ أو تتحرك داخل البحر، إذ لا توجد أي رياح على الإطلاق. هناك فقط بعض الأمواج الطويلة الودودة ترتفع وتنخفض كأنما البحر يتنفس بلطف، تؤكد خلوده وأنه لا يزال حيًّا يتحرك. وعلى طول الشاطئ، حيث المياه تنكسر أحيانًا، رأيت طبقة سميكة من الملح تصطبغ باللون الوردي تحت السماء المتوهجة».

«شعرت بثقل في رأسي ولاحظت أنني أتنفس بسرعة شديدة. ذكرتني هذه الأحاسيس بتجربتي الوحيدة لتسلق الجبال، ومن هنا خلُصت إلى أن الهواء أقل مما لدينا الآن».

«بعيدًا عند المنحدر المقفر سمعت صرخة قاسية، ورأيت شيئًا مثل فراشة بيضاء ضخمة تميل وترفرف عاليًا، تدور ثم تختفي عبر بعض الروابي المنخفضة».

«كان صوتها كئيبًا حتى أنني ارتعدت خوفًا، وأجلست نفسي بقوة أكبر على الآلة».

«نظرت حولي فرأيت بالقرب مني ما اعتبرته كتلة ضاربة إلى الحُمرة من صخرة كانت تتحرك ببطء نحوي. ثم شاهدت هذا الشيء، كان بالفعل مخلوقًا وحشيًّا يشبه الكابوريا. هل يمكنكم تخيل كابوريا كبيرة في حجم هذه المائدة، تتحرك أرجلها العديدة ببطء وتعثُر، وتتمايل مخالبها الكبيرة، وتشبه قرون استشعارها الطويلة السياط، تتلوى وتتحسس حولها، وعيناها تلمعان وهما يلاحقانك على جانبي جبهتها الصلبة؟ كان ظهرها مجعدًا ومنقوشًا وفوقه حدبات بشعة، وقشرة خضراء تبدو كبقع هنا وهناك. كان بإمكاني أن أرى اللوامس العديدة بفمها المعقد وهي تخفق وتتحسس خلال حركتها».

«شعرت وأنا أحدق في هذا الكائن الشرير، وهو يزحف نحوي، بدغدغة على وجنتي كأن ذبابة حطت عليها».

«حاولت إزاحتها بيدي، لكنها عادت خلال لحظة، وعلى الفور تقريبًا جاءت أخرى بالقرب من إذني. ضربتها، وأمسكت شيئًا يشبه الخيط. انفلت سريعًا من يدي. استدرت في ارتياب مخيف ورأيت أنني أمسكت بقرون استشعار كابوريا متوحشة أخرى تقف ورائي مباشرة. كانت عيناها الشريرتان تتلويان في محجريهما، وكانت شهيتها واضحة على فمها، كما كانت مخالبها البشعة الكبيرة الملطخة بطين أخضر تهوى فوقي».

«وفي لحظة وضعت يدي على رافعة آلة الزمن، وحددت مدة شهر لتفصلني عن تلك الوحوش. ولكنني وجدت نفسي على نفس الشاطئ، ورأيتهم الآن بوضوح عندما توقفت. أخذت العشرات منهم يزحفن هنا وهناك تحت الضوء الكئيب بين الخضرة الكثيفة المورقة».

«يصعب أن أنقل الإحساس بالوحشة البغيضة التي خيمت على العالم. السماء الشرقية الحمراء، والسواد شمالًا، والبحر الميت المالح، والشاطئ الصخري الذي تزحف عليه تلك الوحوش الكريهة بطيئة الحركة، والخضرة المنتظمة التي تبدو سامة من نباتات الأشنة، وقلة الهواء بما يؤذي الرئتين؛ كل ذلك ساهم في إحداث تأثير مروع».

«انتقلت مائة سنة، وهناك رأيت نفس الشمس الحمراء، والبحر الميت نفسه، ونفس الهواء البارد، ونفس الحشد من القشريات الأرضية التي تزحف إلى الداخل والخارج بين الأعشاب الخضراء والصخور الحمراء».

«ثم واصلت سفري، متوقفًا مرات ومرات، عبر خطوات كبيرة من ألف سنة أو أكثر، يدفعني في ذلك لغز مصير الأرض، ومتتبعًا بجاذبية غريبة كيف تصبح الشمس أكبر ويقل وهجها في السماء جهة الغرب، وكيف تنحسر حياة الأرض القديمة. وأخيرًا، بعد أكثر من ٣٠ مليون سنة من الآن، أصبحت قبة الشمس الحمراء الملتهبة الضخمة تحجب حوالي سُدس السماء متزايدة الظلام. توقفت، إذ اختفت جحافل الكابوريا الزاحفة العديدة، وبدا الشاطئ الأحمر بلا حياة مرة أخرى،

ماعدا نبات حشيشة الكبد الأخضر الداكن والأشنات».

«بمجرد أن توقفت، هاجمني برد قارس. شعرت ببرودة الهواء الشديدة، وهبوط رقائق بيضاء قليلة مرارًا وتكرارًا وهي تدور. في جهة الشمال الشرقي، كان وهج الثلج يرقد تحت ضوء نجوم السماء القاتمة، وتمكنت من رؤية قمة متموجة من الروابي ذات اللون الأبيض الوردي. امتدت أطراف جليدية على طول حافة البحر، وانجرفت بعيدًا قطع أخرى، لكن المدى الرئيس من ذلك المحيط الملحي، الذي بدا بحمرة دموية تحت غروب الشمس الأبدية، ظل غير متجمد».

«بحثت حولي لأرى ما إذا بقيت أي آثار لحيوانات. شعرت بخوف لا يمكن تحديده، جعلني أبقى في مقعد الآلة. لم أبصر أي شيء يتحرك، سواء على الأرض أو في السماء أو في البحر. ويشهد مجرد وجود الطين الأخضر على الصخور أن الحياة لم تنقرض. ظهر مرتَفَع رملي في البحر وقد انحسر الماء عن الشاطئ. تخيلت أنني أرى شيئًا ما أسود يرتفع وينخفض حول هذه الضفة، إلا أنه أصبح بلا حراك عندما دققت النظر إليه، واستنتجت أن عينيَّ خدعتاني وأن ذلك الشيء هو مجرد صخرة. كانت النجوم في السماء شديدة اللمعان، وبدا لي أنها لا تتلألأ كثيرًا».

«وفجأة لاحظت أن إطار الشمس الدائري، ناحية الغرب، قد تغير، وظهر في المنحنى تقعرًا، يشبه الخليج. ورأيته يزداد نموًا. حدقت مذعورًا، ربما لمدة دقيقة، في هذا السواد الذي أخذ يزحف حاجبًا

النهار، ثم أدركت أن الكسوف يبدأ. يزحف القمر الآن دون شك إلى أقرب نقطة من الأرض، والأرض إلى الشمس، كان الكسوف متكرر الحدوث».

«تسارع هبوط الظلام، وبدأت رياح باردة تهب بنسيم عليل من الشرق، ثم تزايدت الرقائق البيضاء التي كانت تتساقط من الهواء. كان المد يزحف متموجًا وهامسًا. وخلف هذه الأصوات الهامدة كان العالم صامتًا... صامتًا! سيكون من الصعب أن أنقل لكم سكونه. جميع أصوات البشر، وثغاء الخراف، وزقزقة الطيور، وهمهمة الحشرات، الضجة التي تشكل خلفية حياتنا، لم تكن موجودة. مع اشتداد الظلام، أصبحت الرقائق الدوارة أكثر وفرة، تتراقص أمام عيني؛ واشتدت برودة الهواء. وأخيرًا، اختفت بسرعة في السواد قمم التلال البيضاء البعيدة، واحدة تلو الأخرى. تنامى النسيم متحولًا إلى رياح تئن. رأيت ظل الكسوف الأسود في المنتصف يتجه نحوي. وفي لحظة أخرى لم يكن مرئيًّا سوى النجوم الشاحبة. كل شيء آخر اكتنفه ظلام دامس. كانت السماء سوداء تمامًا».

«تملكني الرعب من هذا الظلام الشديد. تغلب علي البرد الذي تسلل إلى عظامي، والألم الذي أحسسته في تنفسي. انتابتني قشعريرة وأصبت بغثيان قاتل. ثم ظهرت حافة الشمس مثل قوس ملتهب في السماء».

«خرجت من الآلة لأتعافى. شعرت بدوار وعدم قدرة على الصمود

في رحلة العودة. رأيت مرة أخرى، وأنا أقف مريضًا ومشوشًا، ذلك الشيء الذي يتحرك عند المياه الضحلة.. ما من خطأ الآن، كان شيئًا متحركًا قبالة مياه البحر الحمراء. كان شيئًا مستديرًا، ربما في حجم كرة القدم أو أكبر، لونه أسود في مواجهة المياة المتلاطمة المصطبغة بلون أحمر دموي، ويقفز بشكل متقطع في المكان. ثم شعرت بأنني على وشك الإغماء. الفزع رهيب من استلقائي بلا حيلة في ذلك الشفق البعيد عزز قوتي وأنا أصعد إلى مقعد الآلة».

«وهكذا عدت إلى المنزل. لا بد أنني بقيت لفترة طويلة فاقد الوعي على مقعد الآلة. استأنفت الأيام والليالي تعاقبها السريع، وأصبحت الشمس ذهبية مرة أخرى، والسماء زرقاء. تنفست بقدر أكبر من الحرية. أخذت ملامح تقلُب الأرض من حولي تنحسر وتتمدد. وتراجعت مؤشرات العقارب على المقياس. وأخيرًا رأيت المنازل مرة أخرى بظلالها القاتمة، دليل الوجود البشري الآيل إلى زوال. تغيرت أيضًا هذه المنازل، وزالت، وظهرت غيرها. وعندما أشار عقرب الملايين إلى الصفر، خففت السرعة، وبدأت أتبين معمارنا الجميل المألوف. عاد مؤشر الآلاف مرة أخرى إلى نقطة البداية، وأخذ تعاقب الليل والنهار يبطئ تدريجيًّا. ثم أحاطت بي جدران مختبري القديمة. وبرفق شديد قللت سرعة الآلة».

«رأيت شيئًا واحدًا بسيطًا بدا غريبًا بالنسبة لي. لقد أخبرتكم أنني عندما بدأت في الانطلاق، وقبل أن تصبح سرعتي عالية جدًّا، سارت

السيدة واتشيت عبر الغرفة، بسرعة بدت لي كالصاروخ. وعندما عُدت، شهدت تلك اللحظة مرة أخرى عندما سارت عبر المختبر. ولكن كل حركة تبدو الآن عكسية تمامًا. فُتِح الباب في نهاية الغرفة ودلفت بهدوء إلى المختبر وظهرها ناحيتي، واختفت خلف الباب الذي دخلت منه سابقًا».

«أوقفت الآلة، ورأيت حولي مرة أخرى المختبر القديم المألوف، وأدواتي، وأجهزتي، تمامًا كما تركتها. خرجت من الآلة وأنا أرتجف بشدة، وجلست على دكتي الطويلة. ظللت لعدة دقائق أرتعش بعنف. ثم أصبحت أكثر هدوءًا. حولي كانت ورشة عملي القديمة ثانية، بالضبط كما تركتها. ربما نمت فيها وكل شيء كان حلمًا».

«لكن الأمر لم يكن على هذا النحو تمامًا. لقد بدأت الآلة من الزاوية الجنوبية الشرقية للمختبر. وقد استقرت مرة أخرى في الشمال الغربي، قبالة الجدار، حيث ستجدونها. هذا يعطيكم المسافة الدقيقة من المرج الصغير إلى قاعدة تمثال أبي الهول الأبيض».

«تبلد ذهني لفترة. ثم قمت، وسرت عبر الممر هنا، وأنا أعرُج، لأن كعبي لا يزال يؤلمني، وأشعر به ملوثًا بشدة. رأيت جريدة بول مول جازيت **Pall Mall Gazette** على المائدة بجوار الباب. كان التاريخ في الواقع هو تاريخ اليوم، وعندما نظرت إلى الساعة، كانت تقريبًا الثامنة. سمعت أصواتكم وقعقعة الأطباق. ترددتُ، شعرت بالإعياء والضعف. ثم شممت رائحة اللحوم اللذيذة، وفتحت الباب.

وأنتم تعرفون الباقي. اغتسلت، وتناولت الطعام، والآن أحكي لكم القصة».

قال بعد حين: «أعرف أنكم ستجدون صعوبة في تصديق حكايتي، لكن الشيء الوحيد الذي أجد صعوبة في تصديقه هو أنني هنا الليلة في هذه الغرفة القديمة المألوفة، أنظر إلى وجوهكم المريحة، وأخبركم بكل هذه المغامرات الغريبة».

نظر إلى الطبيب.

«لا.. لا أتوقع أنكم تصدقونني. اعتبروها كذبة، أو نبوءة. وليكن مثلًا أنني حلمت بذلك في ورشة العمل. اعتبروا أنني كنت أتأمل مصائر جنسنا، إلى أن ابتدعت هذه القصة الخيالية. تعاملوا مع تأكيدي على حقيقة ما حدث باعتباره مجرد إبداع فني يستهدف التشويق والإثارة. ولكن بالنظر إليها باعتبارها قصة، ما رأيكم فيها؟».

أمسك بغليونه وبدأ بطريقته المتادة القديمة الطرق على قضبان موقد المدفأة.

* * *

الفصل الرابع عشر

بعد قصة المسافر عبر الزمن

مرت لحظة صمت. ثم بدأ صوت صرير المقاعد واحتكاك الأحذية على السجادة. أبعدت عيني عن وجه المسافر عبر الزمن وتجولت ببصري بين ضيوفه. كانوا يجلسون في الظلام، تسبح أمامهم نقاط صغيرة من الألوان. بدا الطبيب مستغرقًا في تأمل مضيفنا. وكان رئيس التحرير يتطلع بجدية من وراء سيجاره.. السيجار السادس. أما الصحفي فقد كان يتحسس ساعته. وكان الآخرون، بقدر ما أتذكر، بلا حراك.

وقف رئيس التحرير متنهدًا.

قال وهو يضع يده على كتف المسافر عبر الزمن: «من المؤسف أنك لست كاتب قصص!».

«لا تصدق القصة؟».

«حسنًا...».

«لم أعتقد أنك ستصدقها». استدار المسافر عبر الزمن ناحيتنا. وقال: «أين أعواد الثقاب؟». أشعل عود ثقاب، وتحدث وهو يدخن غليونه قائلًا: «أقول لكم كل الحقيقة... أنا نفسي بالكاد ما أصدقها... ومع ذلك...».

وقعت عيناه، في استفسار صامت، على الزهور البيضاء الذابلة فوق المائدة الصغيرة. ثم أدار يده التي تحمل الغليون، فرأيت أنه ينظر إلى بعض الندوب التي لم تلتئم تمامًا في مفاصل أصابعه.

نهض الطبيب، وذهب إلى المصباح، وفحص الزهور، وقال: زهور غريبة».

انحنى الطبيب النفسي إلى الأمام لمشاهدتها، وهو يمد يده للإمساك بهذه العينة.

وقال الصحفي: «أعتقد أن الساعة الآن الواحدة إلا ربع، كيف سنعود إلى منازلنا؟».

قال الطبيب النفسي: «هناك الكثير من سيارات الأجرة في المحطة».

قال الطبيب: «إنها زهور تثير الفضول، لكنني لا أعرف قطعًا نظامها الطبيعي. هل يمكنني أخذها؟».

تردد المسافر عبر الزمن ثم قال فجأة: «لا بالتأكيد».

قال الطبيب: «من أين أحضرتها حقًّا؟».

وضع المسافر عبر الزمن يده على رأسه. وتحدث كمن يحاول الحفاظ على فكرة تراوغه: «وضعتها وينا في جيبي، عندما سافرت عبر الزمن». كان يحدق ببصره في أنحاء الغرفة.

«أنا أ... أ... أخشى أن أنسى كل شيء. هذه الغرفة وأنتم والجو اليومي، هذا كثير جدًّا بالنسبة لذاكرتي. هل صنعت آلة الزمن، أو نموذجًا لها، أم أن كل ذلك مجرد حلم؟ يقولون إن الحياة هي حلم، حلم بسيط ثمين في بعض الأحيان، لكنني لا أستطيع أن أتحمل أن حلمًا آخر لا يصلح للتصديق. إنه الجنون. من أين يأتي الحلم؟ يجب أن ألقي نظرة على الآلة. إن كانت هناك آلة».

أمسك سريعًا بالمصباح، وحمله وهو يتوهج بضوء أحمر، واجتاز الباب نحو الممر.

تابعناه.

هناك، على الضوء الوامض للمصباح كانت تقبع الآلة، موجودة بالتأكيد، قصيرة، وقبيحة، ومائلة، مصنوعة من النحاس، والأبنوس، والعاج، والكوارتز الشفاف اللامع. كان ملمسها صلبًا -إذ وضعت يدي وتحسست قضبانها-، وكان على العاج نقاط وبقع بنية اللون، وفوق الأجزاء السفلية كانت توجد فتات من الأعشاب والطحالب، وكان أحد القضبان مائلًا باعوجاج.

وضع المسافر عبر الزمن المصباح على أحد الدكك الطولية، وحرك يده على القضيب المكسور.

قال: «كل شيء صحيح. القصة التي أخبرتكم بها صحيحة. أعتذر لأني جلبتكم هنا في البرد».

أمسك بالمصباح، وعدنا في صمت مطلق إلى غرفة التدخين.

جاء معنا المسافر عبر الزمن إلى القاعة، وساعد رئيس التحرير على ارتداء معطفه. نظر الطبيب إلى وجه مضيفنا وقال له، وهو متردد بعض الشيء، أنه يعاني من الإرهاق نتيجة كثرة العمل، فضحك المسافر كثيرًا. أتذكره واقفًا في المدخل المفتوح وهو يودعنا بقوله: «ليلة سعيدة».

تقاسمت سيارة أجرة مع رئيس التحرير، الذي أعرب عن اعتقاده أن الحكاية «كذب صارخ». من ناحيتي، لم أتمكن من التوصل إلى أي استنتاج حول هذه المسألة. كانت القصة رائعة ولا تُصدق، لكن السرد كان رصينًا ويتسم بالمصداقية. رقدت مستيقظًا أغلب الليل أفكر فيها. وعقدت العزم على الذهاب في اليوم التالي لمقابلة المسافر عبر الزمن مرة أخرى.

قيل لي إنه في المختبر، ونظرًا لأنني كنت معتادًا على المنزل، ذهبت إليه هناك لكن المختبر كان فارغًا. أخذت أحدق لدقيقة في آلة الزمن ولمست الرافعة بيدي. وهنا تأرجحت الكتلة القرفصاء الضخمة، مثل غصن هزته الريح. أذهلني بشدة عدم استقرارها، وتذكرت من أيام طفولتي عندما كنت ممنوعًا من التطفل. عدت عبر الممر. قابلني المسافر عبر الزمن في غرفة التدخين. كان قادمًا من

البيت. كان يحمل كاميرا صغيرة تحت إحدى ذراعيه، وحقيبة تحت الذراع الآخر. ضحك عندما رآني ومد مرفقه ليصافحني.

قال: «أنا مشغول بشكل مخيف، بالعمل على هذه الآلة هناك».

قلت: «لكن أليس الأمر محض خدعة؟ هل تسافر حقًّا عبر الزمن؟».

قال وهو ينظر مباشرة إلى عيني: «نعم، أسافر فعلًا عبر الزمن».

تردد. تجولت عيناه في أنحاء الغرفة. قال: «أحتاج إلى نصف ساعة فقط. أنا أعرف لماذا أتيت، وهذا جيد جدًّا من جانبك. توجد بعض الصحف هنا. إذا بقيت لتناول طعام الغداء سوف أثبت لك بما لا يدع مجالًا للشك السفر عبر الزمن. سوف أجلب عينات وكل شيء ممكن. هل تسمح لي أن أتركك الآن؟».

وافقت، وأنا بالكاد أفهم مغزى كلماته، هز رأسه، وذهبت إلى الممر، سمعت باب المختبر يُغلق، جلست على كرسي، وتناولت جريدة «نيو ريفيو» **New Review**. ماذا سيفعل قبل وقت الغداء؟ ثم فجأة ذكرني إعلان ما أنني كنت قد وعدت بملاقاة الناشر ريتشاردسون في الساعة الثانية. نظرت إلى ساعتي، ورأيت أنني بالكاد يمكنني أن أحافظ على ذلك الموعد. نهضت، وذهبت إلى الممر لإبلاغ المسافر عبر الزمن.

عندما أمسكت بمقبض الباب، سمعت صوتًا غريبًا متقطعًا في

نهاية الغرفة، ثم نقرة وصوتًا مجلجلًا. أحاطت بي زوبعة من الهواء عندما فتحت الباب، ومن الداخل جاء صوت زجاج مكسور يقع على الأرض.

لم يكن المسافر عبر الزمن موجودًا. بدا لي للحظة أنني أرى هيئة شبحية غير واضحة تجلس في كتلة دوامة من السواد والنحاس، هيئة شفافة إلى حد أن الدكة الطولية خلفها بما عليه من أوراق الرسوم كانت واضحة تمامًا؛ لكنني أدركت على الفور أن هذا الشبح كان وهمًا. لقد اختفت آلة الزمن. كان الموقع المركزي بالمختبر خاليًا، ما عدا خليط لضجة انحسرت من التراب. يبدو أن جزءًا من الضوء الخارجي قد دخل الغرفة.

شعرت بدهشة مفرطة. عرفت أن شيئًا غريبًا قد حدث، وللحظة لم أستطع تحديد هذا الشيء الغريب. وبينما وقفت محدقًا، انفتح الباب المؤدي إلى الحديقة، وظهر الخادم.

نظرنا إلى بعضنا. ثم بدأت الأفكار تتوالى.

قلت: «هل خرج السيد... من هذه الناحية؟».

«لا، يا سيدي. لم يخرج أحد من هذه الناحية. كنت أتوقع أن أجده هنا».

هنا أدركت الأمر. مع مجازفتي أن أصيب ريتشاردسون بخيبة الأمل، بقيت أنتظر المسافر عبر الزمن، أنتظره للمرة الثانية، ربما

سيجلب معه قصة أكثر غرابة وعينات وصورًا.

لكنني بدأت أخشى أن يطول انتظاري مدى الحياة. فقد اختفى المسافر عبر الزمن منذ ثلاث سنوات. وحتى الآن لم يعد، وعند عودته سوف يجد منزله في أيدي غرباء، ومجموعة أصدقائه الصغيرة انقسمت إلى الأبد. فقد اهتم فيلبي بالكتابة المسرحية بدلًا من نظم الشِّعر، وهو رجل ثري -كما هو حال الأدباء- ولا يحظى بأيَّة شعبية. مات الطبيب. وسافر الصحفي في الهند. وأُصيب الطبيب النفسي بالشلل. بعض الرجال الآخرين الذين اعتدت مقابلتهم هناك انقطعوا تمامًا عن الوجود كما لو أنهم أيضًا قد سافروا إلى مفارقات تاريخية مماثلة. وهكذا، فإن قصة المسافر عبر الزمن التي تنتهي كنوع من الاصطدام بحائط سد، يجب أن تظل باقية في الوقت الحاضر على الأقل.

* * *